

# الحرب والمجتمع

حقوق الطبع محفوظة



# الحروب والمحجّم

مكتبة  
المصّدين

تحليل اجتماعي للحروب وتأثيرها الاجتماعيّة  
والثقافيّة والنفسية

جاسّتون بُوتول

مراجعة وتقديم  
دكتور محمد عليّ محمد  
استاذ رئيس قسم علم الاجتماع  
كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية

ترجمة  
عبّاس الشربيني

دار المعرفة الجامعية

هذه ترجمة عربية لكتاب :

**GASTON BOUTHOU  
LA GUERRE, PRESSES  
UNIVERSITAIRES DE  
FRANCE, 1963**



## المحتويات

### الصفحات

|  |           |
|--|-----------|
| تقديم الترجمة العربية .....                | (٩ - ١٧)  |
| مقدمة المؤلف : علم الحروب .....            | (١٩ - ٢٢) |
| الفصل الأول : تاريخ فكرة الحرب .....       | (٢٣ - ٤٤) |
| ١ - الأساطير .....                         | (٢٣ - ٢٥) |
| ٢ - المذاهب اللاهوتية والحرب .....         | (٢٥ - ٢٨) |
| - كتاب العهد القديم ( التوراة ) .....      | (٢٥ - ٢٦) |
| - اللاهوت المسيحي .....                    | (٢٧ - ٢٨) |
| ٣ - المذاهب الفلسفية عن الحرب .....        | (٢٨ - ٣٢) |
| - الفلاسفة الصينيون .....                  | (٢٨ - ٢٩) |
| - الفلاسفة الاغريق .....                   | (٢٩ - ٢٩) |
| - الفلاسفة المحدثون .....                  | (٢٩ - ٣٢) |
| - كانط - هيغل - جوزيف دي متر - نيتشه ..... | (٢٩ - ٣١) |
| - المنكرون .....                           | (٣١ - ٣٢) |
| ٤ - المذاهب الأخلاقية والتشريعية .....     | (٣٢ - ٣٨) |
| - الرومان القدماء .....                    | (٣٢ - ٣٤) |

- قانون الحرب في التوراة ..... (٣٤ - ٣٥)
- العصر الوسيط ..... (٣٥ - ٣٥)
- المشرعون الأخلاقيون ..... (٣٥ - ٣٦)
- ميكيا فيلي - كلوزفتر ..... (٣٦ - ٣٨)
- ٥ - النظريات السوسيولوجية ..... (٣٨ - ٤٤)
- المذاهب المتفائلة ..... (٣٨ - ٣٨)
- سان سيمون - أوجيست كونت - هربرت سبنسر
- تارد - ماركس والماركسيين ..... (٣٨ - ٤٢)
- المذاهب المتشائمة ..... (٤٢ - ٤٤)
- الفصل الثاني : ظاهرة الحرب : تحديدها وتعريفها ..... (٤٥ - ٥٠)
- الفصل الثالث : الخصائص الاقتصادية للحروب ..... (٥١ - ٦٢)
- ١ - ضرورة الإعداد المسبق ..... (٥١ - ٥٤)
- ٢ - الآثار الاقتصادية للحروب ..... (٥٤ - ٥٥)
- ٣ - الأسباب الاقتصادية المفترضة للحروب ..... (٥٥ - ٥٧)
- حروب العوز أو الوفرة ..... (٥٧ - ٥٩)
- ٤ - الحروب والأحوال الاقتصادية ..... (٥٩ - ٦٢)
- الفصل الرابع : المظاهر الديمغرافية للحروب ..... (٦٣ - ٧٦)
- ١ - الآثار الديمغرافية للحروب ..... (٦٣ - ٦٥)
- ٢ - الوظيفة الديمغرافية للحرب ..... (٦٥ - ٦٧)
- البناء المتفجر ..... (٦٧ - ٧٠)
- ٣ - الوظيفة الأولية للحرب ..... (٧٠ - ٧١)
- ٤ - النظم المدمرة ..... (٧١ - ٧٦)
- أ - القتل المباشر للأطفال ..... (٧١ - ٧٢)
- ب - قتل الأطفال بطريقة غير مباشرة ..... (٧٢ - ٧٣)
- ج - استئصال أعضاء التناسل ..... (٧٣ - ٧٣)

- د - نظام الرهينة ..... (٧٤ - ٧٣)
- هـ - الرق ..... (٧٥ - ٧٤)
- و - قانون الردع ..... (٧٥ - ٧٥)
- القتل المؤجل للأطفال ..... (٧٦ - ٧٦)

## الفصل الخامس : السمات الاثنولوجية للحروب ..... (٨٤ - ٧٧)

- ١ - الحرب والعيد ..... (٧٩ - ٧٧)
- السمة الجمالية للحرب ..... (٨٠ - ٧٩)
- السمة المسلية للحرب ..... (٨١ - ٨٠)
- الحرب وفكرة المقدس ..... (٨٢ - ٨١)
- المانوية ( الزندقة ) السيكلوجية ..... (٨٢ - ٨٢)
- ٢ - طقوس الحرب وطقوس الأضاحي ..... (٨٤ - ٨٣)

## الفصل السادس : السمات السيكلوجية للحروب ..... (١٠٣ - ٨٥)

- ١ - النزعات الحربية والعدوان ..... (٨٧ - ٨٥)
- التحليل النفسي للنزعات الحربية ..... (٨٩ - ٨٨)
- ٢ - أنواع السلوك عند المحاربين ..... (٩١ - ٨٩)
- ٣ - المحاربون في التسلسل الاجتماعي ..... (٩٣ - ٩١)
- ٤ - سلوك الحكام ..... (٩٧ - ٩٤)
- ٥ - النتائج السيكلوجية للحروب ..... (١٠٠ - ٩٧)
- ٦ - صور من السلمية ..... (١٠٣ - ١٠٠)

## الفصل السابع : الأسباب المعزوة للحرب ومشروعات السلام .. (١٣٢ - ١٠٥)

- ١ - مشروعات السلام القائمة على الاقتصاد ..... (١٠٩ - ١٠٦)
- ٢ - المشروعات السياسية للسلام ..... (١١١ - ١١٠)
- ٣ - مشروعات الدولة الواحدة ..... (١١٣ - ١١١)
- ٤ - الأهمية التاريخية للحروب الأهلية ..... (١١٤ - ١١٣)

- ٥ - مشروعات التوازن بين الدول ..... (١١٤ - ١١٥)
- ٦ - مشروعات سلام قائمة على النظم السياسية  
للدول ومعتقداتها ..... (١١٩ - ١١٥)
- مشروعات السلام القائمة على القانون ..... (١٢٦ - ١١٩)
- ٧ - المشاريع السيكلوجية والترفيهية ..... (١٢٧ - ١٢٦)
- المشروعات الديمغرافية ..... (١٢٩ - ١٢٧)
- ٨ - مشروعات نزع السلاح ..... (١٣٢ - ١٢٩)
- خاتمة ..... (١٣٤ - ١٣٣)
- حرب أو علم الحرب ..... (١٣٥ - ١٣٥)



## تقديم الترجمة العربية بقلم: الدكتور محمد علي محمد

يجيء نشر هذا الكتاب في وقت ملائم تماماً ، فقد شهدت الأمة العربية النتائج الرهيبة « لحرب الإبادة » التي شنتها اسرائيل على الشعب الفلسطيني ، وعانت لبنان من مختلف آثار هذه الحرب ، كما شارك كل إنسان عربي ، بقلبه ، وعقله ، وضميره ، وبصراخه في الاحساس العميق بآلام هذه الحرب .

وعلى الرغم من صغر حجم هذا الكتاب للأستاذ جاستون بوتول : الأستاذ بمعهد الدراسات الاجتماعية العليا ونائب رئيس المعهد الدولي لعلم الاجتماع بباريس - إلا أنه قد استطاع أن يقدم لنا دراسة شاملة تهدف إلى التعريف بسوسيولوجية الحرب مستخدماً في ذلك رؤية تاريخية لظاهرة الحرب ، ومحلاً مختلف الآثار والنتائج الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، والسكانية ، والنفسية للحروب . كما قدم أيضاً تصوراً لمشروعات السلام ومحاولات التخلص من الحروب بوصفها أقصى صور الصراع بين البشر . والواقع أن الدراسة التي يقدمها الأستاذ بوتول تنطوي على أهم تحليل وأعمقه لهذه الظاهرة ، ومن ثم فهي جديرة بالقراءة والاهتمام .

ولسوف انطلق في هذا التقديم من قضيتين رئيسيتين أثارهما التحليل

الذي انطوى عليه هذا الكتاب ، القضية الأولى تبدو على درجة من العمومية ، لأنها تتصل بالحرب بوصفها أقصى صور الصراع البشري والرؤية السوسيولوجية لهذه الظاهرة . وأما القضية الثانية ، فإنها قضية أقل عمومية من الأولى ، تلك هي الخاصة بموقف الأديان من الحرب ، وعلى وجه التحديد موقف الدين الإسلامي من الحرب ، ذلك أن المؤلف - شأنه شأن غيره من المستشرقين - قد وقع في ذات الخطأ الشائع بينهم والذي يزعم أن الإسلام يدعو إلى الحرب والقتال ، وأنه انتشر بقوة السلاح ، وهذا زعم ينطوي على تضليل وسوء فهم ، كما يهدف إلى نشر أفكار زائفة حول الدين الإسلامي الحنيف ، دين السماحة والسلام .



ولعلنا نبدأ مناقشة القضية الأولى من تلك العبارات التي ضمنها كلاوزفيتز مؤلفه عن الحرب حيث كتب يقول : « الحرب ليست شيئاً مختلفاً عن المبارزة على نطاق واسع ، وإذا ما أردنا أن نجتمع النزاعات الخاصة المتعددة التي تتألف الحرب منها في مفهوم واحد ، يحسن بنا أن نفكر في اثنين من المتقاتلين يحاول كل منهما بواسطة قوته البدنية إخضاع خصمه لارادته . إن هدفه الفوري المباشر هو إلقاء خصمه أرضاً ليجعله عاجزاً عن أية مقاومة » . « فالحرب إذن ، وبهذا الشكل عمل من أعمال العنف يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا . ويتسلح العنف في مجابهته للعنف ، بالفنون والعلوم ، ويقترون بقيود صغيرة تكاد لا تذكر ، تأخذ اسم قوانين حقوق الأفراد . إلا أن هذه القيود لا تضعف من فاعلية العنف . فالعنف بمعنى العنف البدني لأنه لا وجود للعنف الأخلاقي إلا في مفهوم الدول والقانون ، هو إذن الوسيلة ، أما الغاية فهي فرض إرادتنا على الخصم . ولكي نحقق هذه الغاية بكل أمان ينبغي نزع سلاح العدو ، وهذه الغاية هي بالتعريف هدف العمليات الحربية ، ويتخذ هذا الهدف مكان الغاية ويبعدها ، كأنها شيء لا ينتسب إلى الحرب نفسها » . ثم يستطرد كلاوزفيتز في وصفه للحروب بين الأمم

بقوله : « إذا كانت الحروب بين الأمم المتحضرة أقل شراسة ودماراً من حروب الأمم المتخلفة ، فذلك ناجم عن الوضع الاجتماعي لهذه الدول » .  
والواقع أن هذه فكرة مضللة لا يمكن قبولها ، بل إنها تروج للاستعمار والامبريالية العالمية ذات القوى العسكرية المسلحة ، فكل الحروب الاستعمارية كانت دموية رهيبة ، كما أن العالم لم ينس حتى الآن شراسة الولايات المتحدة الأمريكية عندما ألقت قنبلتيها الذريتين على هروشيا ، وناجازاكي كما شهدت فيتنام الشمالية عملية دمار وحشية قامت بها أمريكا أيضاً . وبالمثل فعلت إسرائيل فعلتها الدنيئة في لبنان ، حينما قامت بعملية إبادة جماعية للشعب الفلسطيني وجعلت من لبنان بركة كبيرة من الدماء .

وإذن ، فالمفهوم الاجتماعي للحرب يدور حول فكرة العنف والصراع ، ولقد حاول علماء الاجتماع البحث عن معايير محددة للفرقة بين الحرب والسلم من جهة ، واهتموا أيضاً بالكشف عن مختلف آثار ونتائج الحروب من جهة أخرى . وتعد كتابات بيريترين سوروكين P. Sorokin عن سوسيولوجية الحرب ، رغم أنها قديمة تعود إلى عام ١٩٢٨ وما بعدها ، من أهم وأشمل التحليلات السوسيولوجية في هذا الصدد . ويؤكد سوروكين أن « معلوماتنا لا تزال قاصرة عن تطوير تصور متكامل للحرب من وجهة النظر السوسيولوجية » ، ولقد تبدى ذلك حتى في المحاولات المعاصرة التي بذلها رجال الاجتماع والقانون لوضع حدود لظاهرة الحرب ، لكن المتفق عليه أن الدراسة الاجتماعية للحرب تتعلق ببحث هذه الظاهرة بوصفها « حالة اجتماعية » تتيح فرصة ظهور أنماط للسلوك والعلاقات يتعذر أن تشهدها حالة مقابلة هي حالة السلم Peace . وربما يفيد هذا التصور في صياغة معايير مناسبة وواضحة لبداية الحرب ونهايتها ، هذا فضلاً عن أن أهم معايير الحرب أنها تنطوي على التبرير القانوني لاستخدام القوة المسلحة بين جماعتين يسود بينهما عدااء وصراع مباشر . ومع ذلك فليس العدااء دائماً مبرراً لنشوب الحرب . ولكن الحروب ، من جهة أخرى ، أصبح ينظر إليها على

أنها حالة خارجة عن الاجماع القانوني الدولي ، فقد أكدت هيئة الأمم المتحدة أنه ينبغي حسم الصراعات الدولية بالوسائل السلمية ، على نحو لا يهدد السلام والأمن الدوليين ويسمح بتدعيم العدالة .

وعلى الرغم من إدانة المواثيق الدولية للحروب ، إلا أن الملاحظ أن ظاهرة الحرب ظلت تهدد أمن وسلام الأمم المعاصرة ، بل ربما فاقت في أهميتها وخطورتها الحروب القديمة . ويبدو أن اتساع نطاق الاتصال بين الشعوب بعد التقدم الهائل الذي شهدته وسائل الإعلام والتكنولوجيا ، مما جعل إمكان انتشار العداوات والصراعات أمراً يسيراً . هذا بالإضافة إلى أن التقدم التكنولوجي قد اصطحب معه نوعاً من عدم التوازن الدائم في القوى العسكرية ، هذا فضلاً عن ارتفاع مستوى وعي الشعوب بالظروف العالمية مما أدى بدوره إلى إثارة نوع من القلق العام حول إمكانية اندلاع حروب عالمية في أي وقت ، وحول الأخطار التي تهدد الجنس البشري من جراء هذه الحروب .

وليس من شك أن الكتابات التي تناولت ظاهرة الحرب قد عكست اهتمامات المشتغلين بكافة فروع العلم الاجتماعي ، وهناك تحليلات سياسية ، واقتصادية ، وتكنولوجية ، وقانونية ، وسيكولوجية ، وسوسيولوجية للحرب . ومن ثم ينبغي توضيح هذه الوجهات المختلفة من النظر ، وبيان مدى التداخل والارتباط فيما بينها . أما القيمة السياسية للحرب فقد أظهرها التاريخ القديم ، وبخاصة في الحضارات المصرية والاعريقية والرومانية . وهناك تحليلات سياسية مختلفة لهذه الحروب ، بعضها قديم وبعضها الآخر معاصر . وتباين اتجاهات المحللين السياسيين المعاصرين لظاهرة الحرب ، فالاتجاه الأول السائد بينهم ينطلق أساساً من ميثاق الأمم المتحدة ، ومن ثم يدين الحرب تماماً ، ويمنع استخدام القوة والعنف . وذلك من أجل تحقيق استقرار الشعوب ، والأمن والتوافق والتقدم والرفاهية . بينما يميل أصحاب الاتجاه الثاني إلى القول بأن تواجد دول تختلف مذاهبها السياسية في العالم ،

والمثال على ذلك انقسام العالم إلى معسكرين سياسيين أحدهما يعتمد النظام الشيوعي ، والآخر يقوم على الرأسمالية الحرة ، لسوف يدعم دائماً فرص الحرب والعنف ، إذ سوف تتصارع هذه الحكومات من أجل أن تقضي إحداها على الأخرى باستخدام كافة وسائل الصراع بدءاً من الدعاية ، والأحلاف العسكرية وتهديدات العنف ، واستخدام القوة المسلحة والحروب ، ومعنى ذلك أن الحرب سوف تستمر في أن تكون هي الأداة الرئيسية للسياسات القومية ، وهي ضرورة من ضرورات تحقيق المصالح القومية .

ويبدو أن أصحاب الاتجاه الثالث يميلون إلى قبول الموقفين السابقين في أن واحد ، فهم يصرون على ضرورة الاحتفاظ بتوازن القوى العسكرية ، وهذا أمر يمكن أن يتحقق بواسطة التوازن بين القوتين النوويتين في العالم ، إن الحرب النووية سوف تكون ذات آثار مدمرة للبشرية ولن تحفل بأية موثيق أو حدود قانونية أو أخلاقية . وهكذا ، لن يتم الاحتفاظ بالتوازن بين القوى العسكرية - السبب الرئيسي في قيام الحروب . في حالة اختلاله - إلا بوجود قوة أخرى مضادة ، فالتهديد بالعنف وبالحروب يمكن أن يكون وسيلة للحفاظ على السياسة وبخاصة في حالة الأزمات العالمية . وأخيراً ، نجد جماعة رابعة ، تؤكد ضرورة تجنب الحرب النووية ، ولكنها توافق في الوقت ذاته على ضرورة القوات المسلحة كدعماء للدبلوماسية ، ولكنها تقيم تفرقة بين الحرب النووية ، وبين ما يمكن تسميته بالحرب الانشاقية Conventional War ، وهذه الحرب تلجأ إلى الاتفاقات والمعاهدات والأحلاف التي تهدف إلى حصر نطاق الطاقة النووية الحربية ، وتأمين الاتفاق حول عدم استخدام الطاقة النووية في الحرب .

وإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى وجهة النظر الاقتصادية لانتضح لنا انقسام الاقتصاديين إلى فريقين ، فأصحاب نظرية الاقتصاد الحر يؤكدون أن المنافسة

وإذا ما تركنا جانباً هذه المناقشات النظرية إلى الدراسات التي حاولت تحليل ظاهرة الحرب اعتماداً على بيانات واقعية ، لوجدنا أن لويس ريتشاردسون Lewis Richardson يعتبر أن الأسباب الاقتصادية للحروب تقل أهميتها نسبياً ، وقد خلص إلى هذه النتيجة بعد تحليل إحصائي للحروب التي نشبت فيما بين عامي ١٨٢٠ - ١٩٤٩ ، ولاحظ أيضاً أن أهمية هذه العوامل تزداد في الحروب الصغرى عنها في الحروب الكبرى . وعموماً ، فقد أوضحت الدراسات التي سارت على نفس هذا النهج ، أنه إذا قورنت العوامل الاقتصادية للحروب بغيرها من العوامل مثل : الطموح السياسي ، والاعتقادات الأيديولوجية ، والتغير التكنولوجي ، والمطالب القانونية ، والعوامل السيكولوجية ، والرغبة في عدم تحقيق حالة سلام في عالم متغير ، إذا قورنت هذه العوامل بالأسباب الاقتصادية لفاقت في أهميتها الدور الذي تلعبه هذه الأسباب .

على أن علماء النفس قد أبرزوا دور العوامل النفسية في إثارة الحروب ، وحاولوا أن يقارنوا بين أهميتها النسبية وأهمية عوامل أخرى مثل الاقتصاد والتكنولوجيا ، وأوضحت دراسات علماء النفس للصراع السياسي والتوتر والقلق أن هناك مركباً من العوامل النفسية المرتبطة بظاهرة الحرب واستخدام القوى العسكرية على نطاق واسع ، وهذه المتغيرات النفسية تشمل التناقض الوجداني ، والابتنال ، والاحتباط ، والتوحد ، والاسقاط ، والعدوان ، والمخاوف المرضية ، والقلق . ولقد شارك علماء الاجتماع زملائهم من المتخصصين في علم النفس دراسة ظاهرة الحروب وأسبابها الاجتماعية ، ودارت دراساتهم حول التنظيمات والعلاقات الدولية والصراعات الدولية ، وظروف تحقيق سلام عالمي من وجهة النظر السوسولوجية . وتمثل هذا الاتجاه أعمال : إينس كلود Inis Claude ، واميتاي اتزيوني A. Etzioni ، وسيمور ميلمان S. Melman ، وليلاند جودريتش L. Goodrich ، وأرثر هولكومب A. Holcombe ، وفريدريك شومان F. Schuman ، وجرنفيل كلارك G.

التجارية الحرة هي الضمان الوحيد للسلام ، على حين يذهب أصحاب الاتجاه الماركسي إلى أن الاقتصاد الرأسمالي هو السبب الرئيسي للحروب في العصر الحديث . وهكذا ، نجد آدم سميث ، وجون ستوارت مل ، وكورديل هول ، وريتشارد كويدن يؤكدون أن المنافسة الاقتصادية الحرة هي الحافز الأساسي وراء الإنتاج والتوزيع ، كما أن التجارة الحرة سوف تضمن نوعاً من تقسيم العمل العالمي وتخلق اقتصاداً عالمياً ، تكون فيه كل دولة معتمدة على النظام التجاري العالمي مما يخلق ضمانات عالمية لعدم اندلاع الحروب حفاظاً على هذه المؤسسات والنظم الاقتصادية العالمية . يضاف إلى ذلك أن نمو العقلية الاقتصادية - من وجهة نظر هذه المدرسة - سوف يؤدي إلى شيوع مناخ مخالف للاتجاهات والنزعات الحربية والعسكرية . على أن تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، سوف يضعف من قيمة الحوافز الانتاجية للعمل والانتاج لسد احتياجات المستهلك ، وينتج النشاط الاقتصادي بدلاً من ذلك إلى دعم قوة الدولة ، وهذا بدوره يمثل توجيهاً للاهتمامات العسكرية . ولعل هذه الفكرة هي التي دفعت هربرت سبنسر H. Spencer إلى التفرقة بين نموذجين للمجتمعات هما : « المجتمع الصناعي » القائم على الاقتصاد الحر والسلام والأمن ، و« المجتمع العسكري » الذي تسود فيه سيطرة الدولة على الاقتصاد استعداداً للحرب .

ولقد تطورت الأفكار الماركسية في تحليلها للنظام العالمي الرأسمالي ، فهي تؤكد أنه كلما ازداد استغلال العمل قل الاعتماد على السوق المحلية ، وأصبح الرأسماليون في وضع يدفعهم إلى تأكيد أهمية التوسع الاستعماري بحثاً عن أسواق جديدة ، ومصادر جديدة للمواد الخام ، وقوى عاملة جديدة تخضع لضروب من الاستغلال ، وهذا التوسع الرأسمالي الاستعماري يؤدي أولاً إلى حرب استعمارية تهدف إلى هزيمة الدول المتخلفة ، ثم ثانياً إلى حروب بين الدول الرأسمالية ذاتها تنشأ نتيجة للتسابق حول المستعمرات أو الامتيازات التجارية .

Clark ، وجون ستراتش J. Strachey وكارول بيل C. Bell ويختلف اتجاه هؤلاء الباحثين عن أصحاب النزعة الدارونية المحدثنة في علم الاجتماع ، من حيث أنهم لا يعتقدون أن الحرب لا يمكن تجنبها ، وإنما هم يعتقدون أن الحكومات تخضع مثلها مثل البشر إلى مؤثرات عديدة ، مثل الوعي ، والعادات ، والعقل ، والقهر ، وصنع قرار معين في موقف ما ، أمر خاضع لعدد من العوامل منها ما يتوافر من معلومات ، وعمليات التحليل والتقويم ، فضلاً عن الظروف التي يخضع لها أولئك الذين يتولون صنع القرارات .

هذا ، وقد إهتمت التحليلات السوسيولوجية للحروب بإبراز الوظائف الاجتماعية المختلفة للحرب ، وانقسمت الآراء في هذا الصدد إلى قسمين ؛ قسم يؤكد أن الحروب والصراعات تمثل عوامل حاسمة في التقدم الاجتماعي ، خاصة إذا نظرنا إلى نتائجها الإيجابية ، وقسم آخر يؤكد أن الحرب شر على البشرية ، وأنها مسئولة عن الكوارث العديدة التي تشهدها الحياة الاجتماعية . ولقد تناول كل اتجاه من هذين الاتجاهين - على أساس مسلماته - دراسة آثار الحروب على السكان ، والظواهر الاقتصادية ، والأخلاقية ، والسياسية ، والحراك الاجتماعي ، وتغير الاتجاهات والآراء ، كما درست أيضاً آثار الحروب على العلوم والفنون . وهكذا ، يتضح لنا اتساع نطاق البحث في سوسيولوجية الحرب ، ولقد استطاع جاستون بوتول في مؤلفه الذي تقدم له هذه الترجمة العربية أن يتناول كل هذه الاتجاهات بالعرض والتحليل .



أما القضية الثانية التي نود أن نعالجها ، فهي تتعلق بما ورد في كتاب بوتول حول موقف الاسلام من الحرب . فقد اتضح أنه ساير نفس النزعة المغرضة التي تكشف عنها كتابات بعض المستشرقين ، والتي تميل إلى إبراز الاسلام على أنه قد انتشر بحد السيف . وهذا ولا شك تضليل ، وجهل



بحقيقة الدعوة الاسلامية . فالإسلام دين سلام لا حرب ، وكانت حياة الرسول الكريم مثلاً أعلى للتسامح والصفح والمحبة والسلام ، كما قرر القرآن الكريم أنه لا يجب إكراه الناس على الدخول في الدين ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ( قرآن كريم : سورة البقرة آية ٢٥٦ ) . ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ ( قرآن كريم : سورة البقرة : آية ٢٠٨ ) . وفي حالة نشوب حرب ، أمر الله رسوله الكريم بالاستجابة إلى السلام إذا جنح العدو لذلك « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ ( قرآن كريم : سورة الأنفال : آية ١٠ ) .

على أن الإسلام قد حرم الحروب لأجل الغزو ونهب الأموال ، وإذلال كرامة الشعوب وإخضاعها ، كما تفعل الدول الاستعمارية الآن<sup>(١)</sup> . وإنما الحرب جائزة حينما تتعرض العقيدة الاسلامية للأخطار ، وللدفاع عن حرية الأمة واستقرارها وسلامها وأمنها ، مع ضمان وكفالة حرية العقائد جميعاً ، وفي كل ذلك لا يبدأ المسلمون أبداً بالعدوان ، يقول تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ( قرآن كريم : سورة البقرة : آية ١٩٠ ) . وإذا أردنا أن ندلل على هذه الحقيقة فلإننا نستطيع أن نقدم أدلة وشواهد لا حصر لها ، ونحن نحيل القارئ إلى الدراسات الاسلامية التي تناولت موقف الاسلام من الحرب والسلم ، وتضمنت ردوداً عديدة على ادعاءات المفرضين والمضللين من أعداء الإسلام .

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : د . محمد جلال شرف ، ود . علي عبدالمعطي ، الفكر السياسي في الإسلام : شخصيات ومذاهب ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٨٨ وما

تلعب دوراً كبيراً جداً في التحولات الاجتماعية إذ تنتهي الحرب عاجلاً أو آجلاً ، بإرغام أشد الدول انغلاقاً على الانفتاح ، وتلك كانت حال الصين أو اليابان أو المغرب خلال القرن الماضي . ولربما كانت الحرب هي أقوى صورة من صور الاتصال بين الحضارات وأعظمها فعالية ، فهي تقطع بالقوة العزلة السيكولوجية ، ويمتد تأثيرها حتى إلى الأزياء ، إذ نستطيع أن نقرر من الظافر الحقيقي في حرب ما تبعاً لطريقة تفصيل الثياب الرسمية في الأعوام اللاحقة للحرب ، فبعد حرب نابليون كانت الخبرة الفرنسية هي التي ينقل عنها ، وبعد عام ١٩١٨ كانت الخبرة الانجليزية ، والآن جاء دور الخبرة الأمريكية والروسية .

وباختصار ، فإن الحرب هي أكثر صور الحياة الاجتماعية وضوحاً وتغيراً ، فهي صورة سريعة حقاً للتحول ، في ضوء ذلك يحق لنا أن نتساءل لماذا تأخر كثيراً وضع علم حقيقي للحرب أي البليمولوجي<sup>(١)</sup> ؟ لماذا لم تحرك أهم ظاهرة اجتماعية أي باحث ليدرس بطريقة موضوعية خصائصها ومظاهرها الوظيفية ؟ ومنذ نصف قرن ونحن نرى قيام المعامل المخصصة لدراسة السرطان والسل والطاعون والحمى الصفراء ، بل إنها تتكاثر كل يوم ، وهذا ولا شك شيء طيب ، فلماذا لم تدفعنا الحروب ، وهي التي تسبب وحدها من الضحايا أكثر بكثير من كل تلك الكوارث مجتمعة ، لماذا لم تدفعنا حتى اليوم إلى إنشاء أصغر معهد للأبحاث ؟

يقول أرسطو : أن العلم يبدأ بالدهشة ، ولذا تتمثل أول عقبة في الدراسة العلمية للحروب في أنه من العسير تماماً أنها تثير دهشتنا إذ أننا قد ألفنا كثيراً هذه الظاهرة ، ومع ذلك ، فهي جديدة بأن تلفت انتباهنا .

(١) لقد افترضنا في مؤلف سابق أن نعطي اسم البليمولوجي Polémologie للدراسة العلمية لظاهرة الحرب التي تعتبر ظاهرة اجتماعية ، لأجل أن نميزها عن علم الحرب الذي يدرس في المدارس العسكرية وكلية أركان حرب .



## مقدمة المؤلف

### علام الحروب (١)



لا جدال في أن الحرب هي أعظم الظواهر الاجتماعية لفتاً للأنظار ، طالما أن علم الاجتماع - كما يقول دور كايم - « هو التاريخ مفهوماً من وجهة نظر خاصة » ، فإنه يمكن الزعم بأن الحرب أنجبت التاريخ . ويرجع ذلك إلى أن التاريخ برمته ، يمكن اعتباره تاريخ الصراع المسلح . وليس من المحتمل أن يتوقف كلية عن أن يكون تاريخ المعارك ، لأن الحروب هي أشد علامات التاريخ وضوحاً ، وهي في الوقت ذاته - أردنا أم لم نرد - الحدود التي تميز التحولات العظيمة للأحداث ، ذلك أنه عن طريق الحرب تحطمت تقريباً كل الحضارات المعروفة ، وبنفس المعنى يمكن القول أنه عن طريقها أيضاً ظهرت كل الحضارات الجديدة تقريباً ، ومن خلالها أيضاً تأكد التفوق الذي أقام لفترة طويلة أو قصيرة غمطاً معيناً من المجتمعات على رأس البشرية .

والحرب هي في الوقت ذاته العامل الرئيسي لتلك المحاكاة الجمعية التي

---

(١) إن كلمة Polémologie ( المركبة من اليونانية Polemos أي الحرب ، ولوجوس Logos أي بحث ) تعني كلمة الحرب بوجه عام ، أي أشكال الحرب وأسبابها ونتائجها ، ووظائفها باعتبارها ظاهرة اجتماعية . وقد اقترح هذه الكلمة جاستون بونول في كتابه « مائة مليون قتيل » الذي ظهر عام ١٩٤٦ ، نقلاً عن مجلة لاروس الشهيرة رقم ١٠٤ ص ٢٥

ويقول برودون (Proudhon) : « ليس هنا قارئ في حاجة لأن نقول له ما هي الحرب من الناحية الطبيعية والواقعية ، فلدى الجميع فكرة ما عنها ، فالبعض لأنهم شاهدها ، والآخرين لأنهم سمعوا عنها الروايات الكثيرة ، وعدد كبير منهم لأنه شارك فيها » وعلينا إذن أن نقاوم فكرة الوضوح المزعوم للحرب ، إذ أن الوضوح في هذه الحالة يرجع إلى عادة عقلية تنشأ من عهد الطفولة ، فكافة الأطفال تقريباً يلعبون لعبة الحرب والجند .

والعقبة الثانية التي تعترض هذه الدراسة تتلخص في أن الحرب تبدو وكأنها تتوقف تماماً على إرادتنا ، إذ أن لها بداية ونهاية ، وهي تندلع في لحظة محددة من الزمان بكل أنواع الاجراءات من دبلوماسية ودينية . ونعزو لها دوافع قد استغرق إعدادها وقتاً طويلاً في محادثات ومناقشات وإذا نظرنا إلى كل حرب على حدة ، فإنها تبدو لنا على أنها اختيارية ولا مفر منها ، وأنها تتوقف فقط على قرار قد اتخذ بعد تفكير طويل وإمعان .

وعلى وجه التحديد يكون ذلك الاعتقاد في أن الحروب عمل إرادي واع ، هو الأصل في العقبة الرئيسية القائمة في سبيل دراستها دراسة علمية . ونود هنا أن نتحدث عن « الوهمية التشريعية » ، إذ أنه بالرغم من آلاف التكذيبات التاريخية ، يمضي المشرعون في تمثيل الحرب في تصورهم بعراك بين الأفراد أو شجار أو مبارزة ، وقياساً على عهود القانون الخاص أو قانون العقوبات ، نرى<sup>(١)</sup> على فترات قيام مشروعات أحلاف دولية ومحاكم وقوانين دولية بعضها يستهدف منع الحرب عن طريق نوع من التنظيم البوليسي ، وأخرى تزيد مع التسليم بها ، تنظيمها تنظيمياً دقيقاً على مثال قوانين الشرف التي تسري لدى المتبارزين المهذبين أو على مثال الأصول التي تحكم مباريات الملاكمة أو كرة القدم ، وبالمثل مشروعات التحكيم التي لم تقدم حتى الآن شيئاً سوى بحث القانون الخاص أو على الأكثر القانون الاقطاعي بتصوره

---

(١) ومع ذلك لم يمنع النشاط التشريعي والجنائي من قيام علم الاجرام .

للتحكيم في النزاع بواسطة عدول كما كان الحال في بلاط البارونات .

نقد كان الأمر حينذاك يختص بالاهتمام لإيجاد علاج فوري ، ولكن كيف نشرع لأشياء لا نعرفها ؟ هل يمكننا القول أننا نعرف ولو بصورة تقريبية ، ماهية الحرب وما هي طبيعتها وما هي وظائفها وما هي الأدوار التي تؤديها ؟ .

إن هذا الاهتمام بالعلاج مهما يكن أمراً مشروعاً ومفهوماً ، هو في اعتقادنا ، العقبة الرئيسية في طريق الدراسة العلمية للحروب إذ أننا نسارع إلى إيجاد علاج قبل معرفة المرض ، أي أن نؤمن قبل أن نعرف .

## الفصل الأول

# تأنيخ فكرة الحرب

ينبغي لنا ، قبل أن نحاول تحديد « ظاهرة الحرب » وتعريفها ، وقبل تحليل مظاهرها ، أن نستعيد النظريات الأساسية التي نشأت في شأن الحرب ، والأحكام الرئيسية التي صدرت بصدها منذ أن كان الناس ومنذ أن تقاتلوا .

### ١ - الأساطير

إذا كانت تصورات الشعوب البدائية عن الكون بوجه عام غامضة غموضاً شديداً لدرجة أنه لا يمكن استخلاص تعاليم محددة منها ، فالأمر على العكس عندما تكون تجاه حضارات تاريخية ، إذ أننا نجد في معارفها عن الكون وفي أساطيرها الدينية سمتين مشتركتين :

أ - المكان الضخم الذي تحتله الحرب من هذه المعارف والأساطير .

ب - السمة المحمودة للنشاط الحربي الذي تمارسه الآلهة وتشجعه وترعاه .

ليس ثمة شيء أكثر تمثيلاً في هذا الشأن من البانتيون الجرمانى الذي

يطلق عليه اسم الفاهالا (Walhalla)<sup>(١)</sup> الذي أنشئ على غرار المآدب التي يتتهج فيها المحاربون بعد حملة مظفرة ، وتحت نظرة تفيض بالرضى من أودين (Odin) رب المعارك وفيها يشرب المحاربون السعداء ومن حولهم الأسلاب والرقيق والأسرى ، شراهم المفضل في هاجم أعدائهم ويأكلون ماشيتهم ويتقاسمون جلودها التي تتجدد كل يوم ، وما أعظم فرحتهم أن تقطع إرباً في آخر المأدبة في فناء قصر الآلهة .

وإذا كانت الميتولوجيا الصينية أكثر ميلاً للسلام وإذا كانت البوذية معارضة للحرب ، فإن الهند البرهمية على العكس تتميز بسمة حربية ضخمة ، فليس هناك شيء في كتبهم المقدسة غير المعارك بين الأرباب والرباب والشياطين والمردة الخ . . . والتي فيها يشارك أحياناً الناس والقردة وحيوانات أخرى . ويفيض كتاب الفيداس (Vidas) برواية تلك الأساطير ويخصص أغلب أشعار الملاحم الضخمة مثل الرمايانا (Ramayaina) لحكاية تلك الحفلات الدينية التي تفيض بأوصاف المعارك ، وتكتسي المعابد الهندية بأشكال بارزة تمثل تلك الصراعات وأن الأرباب اندرا وميترا وفارونا ثم براهما وفسنو وسيفا والربة كالي ليتصارعون في صخب فوق عرباتهم الحربية .

أما الميتولوجيا الاغريقية فتعرض لنا زيوس (Zeus) والأرباب الذين يحاربون التيتان والمردة وتيفا (Tiphée) ونرى كرونوس (Chronos) يناضل ضد أوفينيوني (Ophionée) ويحيط بالإله مارس (Mars) آلهة الفرقة والخوف والفزع ويشرف بلقب « قاتل الرجال » ، ويبدو بالاس (Pallas) في دروعه متسلحاً بالحربة والترس ، وأبولو (Apollon)<sup>(٢)</sup> نفسه يحمل سهماً قاتلة .

ومن الأمور المألوفة في جميع الحضارات المعروفة أن تقدم الاضاحي

---

(١) الفاهالا Walhalla هي عبارة عن البانيون الألماني وهو معبد لرجال ألمانيا العظماء في مدينة روستوف من أعمال بافاريا .

(٢) هذه كلها أسماء الآلهة التي تزخر بها الميتولوجيا اليونانية والتي نجدتها في أدب الملاحم اليوناني كالإلياذة والأوديسا .



بإسراف للآلهة قبل المعارك وبعد إحراز النصر ، إما بذبح الأسرى وإما بترك نصيب من الغنائم للمعابد ، وعند الآشوريين والمصريين والأزتيك كان الأسرى يذبحون بالآلاف وسط سحب من البخور وصرخات الفرح . وترتبط فكرة الأضحيات للآلهة أحياناً مع الطقوس الجنائزية المتوقعة . فالموت المتوقع للمحاربين يأخذ صورة قبلية ويحتفل به مقدماً وكذلك يكون تمجيدهم . . . . ويضاف إلى ذلك غالباً طقوس الاستعطاف وكذلك الدعوات والمباركات وطقوس التطهر التي تجري لأعدادهم لموت مجيد ولتيسير بعثهم . وهناك بقايا غريبة غير خافية من الطقوس الجنائزية التي تسبق المعركة مارسها اليابانيون خلال حرب ١٩٤٠ وتتلخص في أن الطيارين الشبان المتطوعين لقيادة الطائرات الانتحارية (Kamikazé) حضروا عشية رحيلهم مأكلة جنائزية وكانوا يرتدون ثياباً بيضاء وهو لون الحداد لديهم ، فهم على هذا الوجه يتجردون بصورة رمزية من كل متاعهم الأرضي . وفي الغداة تسلم كل منهم على أرض المطار علبة صغيرة بيضاء تمثل الاناء المفروض أن يحفظ الرماد المتخلف عن أجسادهم المحترقة .

## ٢ - المذاهب اللاهوتية والحروب

كتاب العهد القديم ( التوراة ) :

من المدهش أن نقرر أنه عندما ظهر مذهب التوحيد ، أن ننسب إلى الله الأوحد صفات حربية من بين كل الصفات المحتملة المفضلة ( والتي يشارك فيها آلهة الأولمب مثل فلكان وجينون ومركير وسيريز . . . ) وقد كان هو « إله الجيوش » .

تبدأ الحرب بأمر صريح من الله ولا يتم شيء دون مشيئته : ﴿ لا تجزعوا إن الله الصمد موجود بينكم ، إن الصمد إلهك سوف يطرد شيئاً فشيئاً تلك الأمم بعيداً عن وجهك . . . وسوف يهزمها هزيمة ساحقة ويمحوها ﴾

أسماءهم من تحت السموات» (الثنية : اصحاح ٧ ، ٨ ، ٩) أو إذا ما استولى الاسرائيليون على أرض الميعاد ، فيكون ذلك بأمر من الله . ويقول الصمد : « بالنار ينفذ الله الصمد أحكامه ، وبالحسام يعاقب كل لذة ، وأولئك الذين سوف يقتلهم الصمد ، سيكونون في أعداد كبيرة . . . وعندما يخرج الناس سوف يرون جثث الرجال الذين ثاروا ضدي . . . » (اليسع ٦٦) .

ولكن لم تكن الحرب محبة دائماً لدى العبرانيين فعندما وجد العبرانيون أنفسهم تجاه جيوش أجنبية قوية وضخمة لم يعد للحرب أية جاذبية ، وتظهر لديهم حالة نفسية جديدة تتجلى عند جيروم وحزقيال : إنها لم تعد الحرب الصغيرة المثيرة بين القبائل والمدن الصغيرة ، إنها تصبح قصاص من عند الله . « ها هي قارعة من عند الله السرمدي فيها يتفجر الرعب وتنقضي الزوبعة ، وتنصب على رؤوس الأشرار ولن يهدأ غضب الله المحتدم حتى تنفذ مشيئته » (جيروم ٣٠) .

## القرآن :

وفي القرآن يعتبر نشر الإسلام بقوة السلاح واجباً دينياً . والحرب هي المثل الأعلى بل هي أمر من الله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

إن الجنة التي يعد بها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) أتباعه يختص بها المحاربون الذين يلقون الموت وهم يقاتلون ﴿ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، يُغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ خُطَايَاكُمْ وَيَدْخُلَكُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (سورة ٩ آية ٩٠)<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة ٩ آية ٢٩ .

(٢) هذا الرأي الذي يقوله المؤلف بأن نشر الإسلام حدث بقوة السلاح بعيد عن الصواب ، إذ =

كان للمسيحية الأولى تجاه الحرب موقف أصيل قوي ، إذ لعنتها ورفضتها في جملتها وقالت : « من يضرب بالسيف فإنه بالسيف سوف يموت » . ويرفض أوريجين وتريليان وسانت امبراوز رفضاً قاطعاً اللجوء إلى العنف مهما تكن الغاية ، وأن عقيدة عدم العنف التي اعتنقها تولستوي وغاندي هي في أساسها بدعة مسيحية .

ومع ذلك لم تلبث الكنيسة أن وجدت نفسها مضطرة إلى أن تتصالح مع السلطة متبعة ذلك الطريق الأكثر واقعية الذي سلكه القديس بول من البداية ، ثم أقام اللاهوتيون النابهن مذهباً وسطاً ، ويتحدث القديس أوغسطين عن العدل الإلهي إذ هو يحس بالتناقض بين العهد القديم والعهد الجديد ، فيقرر الحرب عندما تكون تعبيراً عن الارادة الإلهية : « إذا أمر الله بأمر خاص ، بالقتل ، يصبح قتل الانسان فضيلة » .

ولكن كانت الحروب الصليبية على الخصوص هي التي ستضع موضع الاختبار البراعة الجدلية لرجال اللاهوت فإذا ما أقام سانت برنار من نفسه المدافع بالحجة عن الحرب المقدسة ، فإننا نرى أيضاً قساوسة يجدون دون تحفظ أشد الأعمال بربرية .

كتب ريمون داجيل (R. d'Agiles) كاهن كندرائية بوي وبمناسبة الاستيلاء على بيت المقدس يقول : « كانت تُرى أشياء تدعو إلى الاعجاب .. كنا نرى أشلاء من رؤوس ومن أيدي ومن أقدام في الطرقات واليادين العامة في المدينة ، وفي جميع الجهات كان الجنود والفرسان يسرون فوق الجثث ... وفي المعبد والرواق كانت الخيول تحوض في الدماء التي تصل إلى ركب الفرسان وإلى أعنة الخيول . أنه حكم عادل وعظيم من الله

= يؤكد الاسلام أنه لا إكراه في الدين . ( أنظر تقديم الترجمة ) ، حيث تعرضت للرد التفصيلي على وجهة نظر المؤلف التي تمثل فيها حاطناً للاسلام في هذا الصدد .

الذي يشاء أن يبلطخ هذا المكان نفسه بدماء أولئك الذين كانوا قد دنسوه بمسبتهم للدين فترة طويلة ، إنها مشاهد سماوية . . . وفي الكنيسة وفي جميع أرجاء المدينة راح الشعب يتهلل شكرياً لله .

ويضع سان توماس في نظريته الشهيرة عن « الحرب العادلة » الشروط التي يمكن أن تجعل من النشاط الحربي عملاً يحوز رضى الله وهذه الشروط هي :

أولاً : سلطة الأمير .

ثانياً : قضية عادلة .

ثالثاً : النية المستقيمة .

وإن غموض هذه الشروط يفسر تردد الكنيسة عندما يتعلق الأمر باتخاذ موقف في نزاع ما . وحتى القرن الماضي كانت الكنيسة لا تزال تردد أنه لا يمكن لحرب بين متحاربين أن تكون عادلة إلا من جانب واحد . واليوم تقضي تعاليمها بأنه يمكن للحرب أن تكون عادلة من الجانبين في آن واحد « من اللحظة التي فيها يعتبر كل طرف من الخصمين ، ودون أن يكون على يقين من حقه ، أن هذا الحق مجرد مرجع بعد أخذ رأي مستشاريه »<sup>(١)</sup> .

### ٣ - المذاهب الفلسفية عن الحروب

الفلاسفة الصينيون :

الفلسفة الوحيدة التي طبقت عبر القرون ودون توقف والتي تدعو إلى عدم تمجيد الحرب هي الفلسفة الصينية ، فيقول كونفوشيوس في عجب : « إن القائد العظيم حقاً هو الذي لا يحب الحرب ولا يميل إلى الثأر ولا يولع بشيء ما » .

(١) أنظر برونو دي سولاج Bruneau de Solages - نشرة عن الاداب الكنيسة - تولى ١٩٤٠

وإلى عهد قريب كان الصينيون يفاخرون بضعفهم الحربي وقد اقتبسوا من ازدرائهم للقيم الحربية قناعة بتفوقهم على الحضارات الأجنبية وكان الجندي في التسلسل التقليدي لديهم ، يشغل الدرجة الأدنى قبل قاطع الطريق مباشرة .

### الفلاسفة الاغريق :

لا نجد في الفلسفة الاغريقية اتجاهاً أخلاقياً له جدة حقيقية إزاء موضوع الحرب ، إذ أن الفلاسفة الاغريق يعتبرونها بوجه عام كأنها تشكل جزءاً من النظام الإلهي ، وفي رأي هيراقليط أن الحرب هي الأداة ذاتها لهذا النظام إذ أنها تقسم وترتب الناس والآلهة أيضاً ، وهو يقول : « إن الحرب هي الأصل لكل الأشياء فهي تجعل من البعض آلهة ومن آخرين رقيقاً أو أحراراً » . أما أفلاطون وأرسطو فلا يدافعان عن الحرب بل إنها يدفعانها عند اللزوم ، وهما يقران بشرعيتها الكاملة سواء في صورتها الهجومية أو الدفاعية عندما تكون ضرورية لخير المدينة ، ويعتبرانها بصفة خاصة ظاهرة إيجابية لا جدال فيها : إن المدينة هي قبل كل شيء جهاز دفاعي أي قلعة جمعية .

### الفلاسفة المحدثون :

#### كانط Kant :

إذا كان الحكم على النشاطات الحربية يأتي بالضرورة من « أوامر قاطعة » فإن كانط لم يجهل مع ذلك الطبيعة المجردة لمثل هذا الحكم ، واهتم بصفة خاصة بتعريف الشروط العملية لإقامة السلام ، وفي « مشروع للسلام الدائم » يشرح عدداً معيناً من المبادئ التي تتقارب كثيراً من تلك التي قدمت في ميثاق ولسون « عن عصبة الأمم . فهو يقترح علاوة على ذلك أن يعلق قرار الحرب أو السلم على موافقة كل مواطن .

وبعد أن يبين فكرة السلام الدائم تتضمن كل التناقضات الخاصة

بفكرة الخلود ، يختتم مع ذلك قائلاً : « إن السلام الدائم ليس عملياً ، ولكن يمكن الاقتراب منه بصورة محددة » .

### هيجل Hegel :

يعتبر هيجل بوجه عام المدافع بلا خجل عن العنف والحرب ومن الممكن أن نرى هيجل من بعض الصيغ المشوبة بالعلو بأن نقرر أنه لم يفعل شيئاً سوى أن أقر واقعية دون الموافقة عليها ، ولا ينبغي من ذلك إلا أن يدافع عن السمة « الحضارية » للعنف ، فهو يرى أن العنف هو اللحظة التي تحقق فيها الدولة أعلى درجة من الشعور بالذات وكان يرى في نابليون الذي كان يعجب به قوله قبل هزيمته « الروح العالمية على صهوة جواد » .

وفي رأيه أن الحرب شر لا بد منه وسوف ينتهي مع تحقيق « الروح المطلقة » . وتتلخص القدريّة الهينة لهيجل في الخضوع في السر للضرورة المتجسدة في المتصرين وفي وجود ميل رومانسي إلى الحلول المأسوية .

### جوزيف دي متر Joseph de Maitre :

أقام جوزيف دي متر فلسفة عن الحرب يمكن اعتبارها الآن كلاسيكية واشتهرت بعض عباراته الشعرية ، ونرى آراءه تعود إلى الظهور بصورة دورية ويتلخص مذهبه الأساسي في الآتي :-

عندما تفقد النفس البشرية حماسها بسبب الليونة وعدم الإيمان والردائل النازخة التي تنجم عن الإفراط في الحضارة ، فلا يمكن أن تشحذ إلا في الدماء وأن الثمار الحقيقية للطبيعة البشرية من الفنون والعلوم والمشاريع العظيمة وفضائل الرجولة تتصل بصفة خاصة بحالة الحرب . . . ويقال أن الدم هو السهاد للنبات الذي نسميه العبقريّة .

هناك شيء ما غامض ولا يمكن تفسيره في الثمن الباهظ الذي يضعه الناس للأجساد الحربية . . فالحرب إذن شيء إلهي في ذاتها ، إنها قانون

العالم .. ولا يحس الانسان باليد الإلهية إحساساً قوياً في أي مجال آخر .

### نيتشه Nietzsche :

اعتاد أصحاب مذهب الحرب الأعلام بأنهم من أتباع نيتشه . وفي الواقع تتناثر في مؤلفاته الأقوال التي تمجد الحرب مثلاً بقوله : « يجب أن تحبوا السلام كوسيلة لحروب جديدة ، وتحبوا السلام الأقصر أشد من حبكم للسلام الأطول لعلكم تقولون أن القضية العادلة تبرر الحرب ... فأقول لكم : « إنها الحرب العادلة التي تقدر أية قضية يا إخوتي في الحرب » وتبدو له الآلام التي تنجم عن الحرب على أنها مدرسة عظيمة فيقول : « لكي يكون الاختبار مقنعاً ينبغي أن تكون الحرب بدون رحمة وخالية من كل شفقة ، إن الفضائل الوحيدة هي الشجاعة والقسوة والجرأة والمكر والذكاء ، وباختصار هي القوة » إن التطلع إلى السعادة يمنع الانسان من أن يكون عظيماً ، يجب أن يعرف الألم والموت » . ثم يقول : « إن الحروب والشجاعة أنتجت الأشياء العظيمة أكثر من حب الجار ... إن الحرب هي الاختبار الصحيح ... إنها وحدها المنافسة التزمية العادلة وفي الحقيقة إنها الشيء الوحيد الذي يمكن تصوره » . ينبغي لنا باسم الغريزة أن نلجأ إلى الحرب التي يقاومها العقل لأن « الغريزة تدفع الانسان إلى كل يكثف حياته » .

ومع ذلك فإن غموض لغة الشعر عند نيتشه يصل إلى درجة تدعو إلى التساؤل : ألم يكن يتحدث وهو يمجد الحرب ، عن الصراعات النفسية تماماً مثل الصراعات المادية ، ذلك أن كتاباته تتضمن أيضاً هجوماً عنيفاً ضد الروح الجماعية والاحتفالية لبعض التقاليد الجرمانية .

### المنكرون (Les Négateurs) :

ينتمي المنكرون إلى طائفتين ، البعض ينقد المروجين للحرب ، ويبدلون جهدهم في بيان أن جانب التخريب والتأخر يفوق الجانب الإيجابي ،

ومن ثم تكون ضيارة ومآلها إلى الفشل وسوء المصير .

وكانت القاعدة تقضي بذبح المغلوبين وبيع الأحياء منهم كرقيق .

في معركة شان دي مارس قام سيللا Sylla<sup>(١)</sup> في هدوء بذبح أربعة آلاف من الأسرى الساميين ومن رجيوم Rhegium<sup>(٢)</sup> قتل جميع السكان بحد السيف . وخلال الحرب البونية عندما استولى الرومان على معسكر أسد ريبال قاموا بذبح جميع القرطاجيين ، وقتلوا جميع أتباعهم من الفانيين الذين كانوا يضطجعون سكارى على فراش من القش .

أما عن البلاد التي غزتها روما ، فقد كان خضوعها لها على درجات متفاوتة ، وكان حق الفتح ينشأ عن التسليم الذي تشهد ضيفته أن المغلوب قد استسلم برغبته : « إني أمنح شخصي ومدينتي وأرضي والماء الجاري وآلهتي ومعابدي وممتلكاتي المنقولة وكل الأشياء المتعلقة بالآلهة ، إلى الشعب الروماني » .

وكان الرومان يراعون في معاهداتهم روحاً تشريعية دقيقة جداً وشديدة التمسك بالتقاليد يقول فيكو (Vico)<sup>(٣)</sup> : « إن الأحكام البطولية كانت تراعى باحترام كبير للألفاظ . . . وتبعاً للعبارات التي تصاغ بها المعاهدات نرى المغلوبين مثقلين بتعاساتهم أو سعداء إذ يكسرون حدة غضب المنتصر » .

كان أهالي قرطاجة من الفئة الأولى إذ ضمنت لهم المعاهدة التي عقدوها

---

(١) سيللا Sylla دكتاتور روماني زعيم الحزب الارستقراطي ، حكم روما ثم تنازل عن السلطة عام ٧٩ ق.م .

(٢) رجيوم Rhegium مدينة اغريقية قديمة تقع على مضيق مسينا ومكانها الآن مدينة رجيو دي كالابرو .

(٣) فيكو مفكر اجتماعي إيطالي .



والبعض الآخر مثل أرازم (Erasme) ورابليه (Rabelais) . وعلى الخصوص الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر باستثناء جان جاك روسو ، يبذل وسعه لنفي صفة القدااسة عن الحرب ويعرضونها في صورة مغامرة تتنازعها السخرية والتفاهة ويسبغون على موضوعها شيئاً من الدعابة السوداء .

ونحن نعرف النظرة الشاملة لفولتير Voltaire عن الحروب إذ يقول : «في اللحظة التي أتحدث فيها إليك هناك مائة ألف مجنون من النوع البشري يلبسون القبعات يقتلون مائة ألف أخرى تغطي العمائم رؤوسهم وذلك بسبب بضعة أكوام من الطين لا يزيد حجمها عن عقب قدمك . . . ولا يتعلق الأمر إلا بمعرفة إذا كانوا ينتمون إلى شخص يسمى سلطاناً أو إلى آخر يدعى قيصر ولا أدري لماذا وليس هناك واحد من تلك الحيوانات قد رأى أبداً الحيوان الذي من أجله يذبحون بعضهم البعض » .

#### ٤ - المذاهب الأخلاقية والتشريعية :

كما أنه ليس هناك مجتمع مهما كان بدائياً دون أن يكون لديه مذهب تشريعي مضمّر ، كذلك ليس هناك حرب بدون قواعد سواء كانت مبهمة أو محدودة تتحكم عند نشوب القتال وتراعى عند نهايته .

#### الرومان القدماء :

يبدأ قانون الحرب عند الرومان بالعصر الكلاسيكي من بدايته ، وهو في أساسه مرتبط بتقاليد مرعية إذ تسهر جماعة خاصة من القساوسة على تطبيق صارم للقواعد ، والأساس في تلك القواعد أن تعلن الحرب وفقاً للطقوس ، ولا يهم سبب الحرب وموضوعها ، فإذا روعيت مراسم إعلانها بدقة ، فهي حرب عادلة وعلى العكس فإن عدم مراعاة الطقوس يجعل الحرب ظالمة ،

مع الرومان الاحتفاظ بحياتهم وأموالهم ومدينتهم ، وكان المقصود من الكلمة الأخيرة مدينتهم المادية أي المنشآت أي (Urbs) في اللغة اللاتينية . ولكن بما أن الرومان كانوا قد استعملوا في المعاهدة كلمة (Civitas) التي تعني اجتماع المواطنين أي المجتمع ، فقد أحققتهم رفض القرطاجيين أن يتركوا شاطئ البحر ويسكنوا فيها بعد الأراضي الداخلية ، واعتبروهم عصاة واستولوا على مدينتهم وأحالوهم إلى حطام واستناداً إلى قانون البطولة لم يروا أنهم شنوا حرباً ظالمة .

### قانون الحرب في التوراة :

نستطيع أن نجد في مؤلفات ابن ميمون أنسب<sup>(١)</sup> تعبير عن هذا القانون بالرغم من أن نظريته كانت متأثرة تأثراً واضحاً بعصره وما فيه من الحروب الاقطاعية والحروب المقدسة التي كانت تنشب على فترات بين الدول المسيحية والمسلمين .

في حالة الغزو يجب على الجميع أن يقاتلوا ، وعلى العكس من ذلك الحروب العدوانية يقوم بها المتطوعون ، وعلى هذا الوجه عالج فيلسوف العصر الوسيط حرفياً مسألة الذين يرفضون أداء الخدمة العسكرية بوازع من ضميرهم فيقول ابن ميمون : « هناك نوعان من الحرب : حروب الضرورة والغزوات الاختيارية ، فالأولى تنشب للدفاع عن التراب الوطني ، والأخرى تقوم بغرض التوسع في الحدود ، ففي الحالة الأولى يدخل الملك الحرب عن طريق سلطته الذاتية ، أما في الحالة الثانية فينبغي أن يحصل على موافقة « الساندرين »<sup>(٢)</sup> وهي محكمة اليهود القدامى في أورشليم ، وحتى في هذه

---

(١) ابن ميمون (Maimonide) هو روسي ابن ميمون فيلسوف يهودي عاش في اسبانيا الاسلام (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) وأهم مؤلفاته باللغة العربية : (دلالة الحائرين) .

(٢) الساندرين Sanhedrin كلمة أرمينية معناها المحكمة ، وهي عند اليهود عبارة عن محكمة تتألف من الكهنة والكتاب وتنتظر في الجرائم وفي المسائل الادارية والجرائم السياسية الهامة . (الترجم) .

الحالة لا يكون المواطنون ملزمين بالاسهام في القتال ، وهناك أسباب عديدة للاعفاء مبنية في الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس « الديترونوم » فالمواطن الذي زرع شجرة كرم أو بنى بيتاً أو تزوج امرأة جديدة يعفى لمدة عام من الخدمة العسكرية . وأخيراً وقبل رحيل الجيش ينطلق المنادون للحرب بين الصفوف يدعون إلى انصراف كل أولئك الذين لديهم شيء من الخوف أو الذين لا يكونون متأكدين من عدالة الحرب .

وينبغي أن تبدأ الحرب بمحاولة للتوفيق التي تبدو كأنها إنذار والتي تتضمن أيضاً أنواعاً من أقل الشروط التي يفرضها الدين مثل : « لا يمكن مهاجمة عدو ما قبل دعوته مسبقاً إلى مؤتمر لترتيب السلام » (الديترونوم الاصحاح ٢٠ فقرة ١٠) .

وإذا ما انفجر النزاع فهناك أصول للاعتداء ينبغي أن تحترم مثلاً : « في حالة نهب مدينة ما في أعقاب حرب ، فإنه محرم قتل امرأة أو طفل » (الديترونوم الاصحاح ٢٠ فقرة ١٤) . وأخيراً إذا قبلت شروط السلام فلا يمكن قتل أي واحد من الأعداء (الديترونوم الاصحاح ٢٢) .

### العصر الوسيط

بعد فترة فاضت بالوان من القسوة جاوزت كل حد ، رأينا قانوناً دولياً ينشأ شيئاً فشيئاً بفضل تدخل من جانب الكنيسة اتسم بشيء من الصبر والجلد ، وبالرغم من أن هذا القانون كان يخرق في أغلب الأحيان ، إلا أنه أدى خدمات لا يمكن إنكارها .

### المشرعون والأخلاقون

قام المشرعون وعلماء الأخلاق دون أن يهتموا بأسباب الحروب أو كيفيتها أو طبيعتها ، بوضع تنظيمات تؤدي جميعها إلى تخفيف آثارها . أهم هذه التنظيمات هي بدون شك نظام « هدنة الله » التي تقررت في

القرن الحادي عشر والتي تحرم أولاً حمل السلاح من مساء السبت إلى صبيحة يوم الاثنين لكي يقوم كل فرد بآداء واجبه الديني نحو الله ، ثم امتدت بعد ذلك لتبدأ من يوم الخميس ، وفيما بعد صار الالتزام بوقف القتال قائماً خلال الأيام السابقة لعيد الميلاد وأثناء الصوم وفي عيد العنصرة ، وكان خرق هذه القواعد يؤدي بالانسان إلى الحرمان من الكنيسة .

ثم كانت الحرب المحدودة التي تنشب بين جماعات صغيرة ذات لغة واحدة وحضارة متماثلة ، موالية لعقد الاتفاقيات وكان هذا هو السبب في أننا نرى في العصر الاقطاعي في أوروبا تطور قانون الحرب ، تلك الحرب التي أخذت تتحول إلى لعبة يتلهى بها الأمراء ، أي عبارة عن رياضة خطيرة تقتصر على النبلاء الذين كانوا كثيراً ما يجولون فيها ويصولون ، وقليلاً ما يقتل بعضهم البعض الآخر ، وصارت هذه الحرب تضبطها الكثير من القواعد التي تهدف إلى أن تجعلها خاضعة لقواعد اللياقة وفي الوقت نفسه ذات صبغة مسرحية إلى حد استعمال الدروع المحكمة التي ينقر عليها فتحدث قرقة عالية دون أن تحدث ضرراً كبيراً .

### مكيافلي :

يعرف الجميع العبارة التي تلخص في إيجاز رأي مكيافلي التي تقول : « إن كل حرب تعتبر عادلة عندما تكون ضرورية » وهذا الرأي يجعله على الخصوص من أنصار « الحرب الوقائية » التي يرى أنها الوحيدة المعقولة حفيقة .

ويشرح مكيافلي نفسه هذه « الضرورة » التي يكتنفها شيء من الغموض فيقول : « ينبغي الدفاع عن الوطن سواء بالمذلة أو الشرف ، فكل الوسائل صالحة على شرط أن يمنع الوطن ، ولأجل أن يمنع الوطن ينبغي غالباً البدء بالهجوم ، « ولما كان الرومان محتاطون من قبل لما يتوقعون متاعب ، فقد كانوا يتقونها على الفور ولا يدعون الأمور تسوء من أجل تفادي الحرب ،

وإذ يعرفون أن لا سبيل إلى تفادي الحرب ، فإن تأجيلها يكون دائماً في صالح العدو .

أما فيما يختص بالقواعد الانسانية ، فيبدو مكيا في واضحاً تجاهها فيقول : « لا يستطيع الأمير أن يمارس بشكل مطلق كل الفضائل إذ أن مصلحته في البقاء تضطره غالباً إلى مخالفة شرائع الانسانية والاحساس والدين » وبعد مكيا في حتى بدء القرن التاسع عشر لم تعد هناك نظريات وضعية عن الحرب عدا مذاهب اللاهوتيين والمشرعين .

### كلوزفتر (Clausevitz) (١) :

عندما يحلل كلوزفتر ظاهرة الحرب ، فإنه يبحث في غاياتها ووسائلها وجميع مظاهرها ، وتكاد تخلو أبحاثه من الأحكام ، ومع ذلك فإنه يبدو أحد الشخصيات البارزة في القرن التاسع عشر مع ماركس وداروين ، وفي رأيه أن ما يرر الحرب من وجهة النظر العقلية هو مدى التضحيات التي تبذل في سبيلها ، وينبغي إذن أن نقوم بالحرب في صورة شاملة ، وتبعاً لذلك فإن العدو هو الذي يتحكم لأنه ينبغي أن نكون مستعدين دائماً لأن نتجاوزه في تقديم التضحيات ، ويقول أن وجود طائفة محاربة أمر لا غنى عنه ولكن أشد من ذلك ضرورة أيضاً هو إعداد الجند « إذ أن الروح العسكرية قد تنشأ عن طريق التقاليد أو التشريع ، ولكن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تخلقها » . وعند كلوزفتر يبدو التفوق السياسي أحد المبادئ الأصلية وفي رأيه أن الجيش ليس إلا أداة « فالحرب في حقيقتها ليست سوى التعبير عن السياسة أو أحد مظاهرها وأن الرغبة في إخضاع وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية أمر لا معنى له ، إذ أن العامل السياسي هو الذي يقرر الحرب ، وهو القوى المفكرة ، والحرب هي أدواته فقط وليس العكس ،

---

(١) هو كارل فون كلوزفتر Karl von Clausevitz جنرال بروسي ولد عام ١٧٨٠ وتوفي عام ١٨٣١ وصاحب مؤلف مشهور عن الاستراتيجية بعنوان : « علم الحرب » .

وإخضاع وجهة النظر العسكرية لوجهة النظر السياسية هو إذن الشيء الوحيد الممكن « وحيث أن الجيش هو أداة للسياسة كانت له الأهمية الكبرى ، وكان قمة الحياة الاجتماعية : « فالحرب تنمو في أحضان سياسة الدولة وفيها تكمن مبادئها كما توجد كامنة في الجنين الصفات الخاصة بالفرد » . وعلى ذلك « ينبغي إشعال الحرب بكل ما تمتلك الأمة من قوة » وعلى هذا الوجه تستخلص ملامح الحرب الشاملة عند كلوزفتر وأنه من أجل ذلك تماماً تكون « الحرب عمل من أعمال العنف الذي يبلغ أقصى الحدود ، وأن دخول معركة ذات احتمالات متساوية يعتبر عجزاً خطيراً ... وأن الاتجاه إلى تحطيم العدو هو الشيء المرتبط بفكرة الحرب : وأن النصر هو المرادف للإبادة ... » .

## ٥ - النظريات السوسيولوجية

هذه النظريات ذات أساس مشترك يتلخص في أنها تقر أن الحرب ظاهرة « طبيعية Normal » في حياة الشعوب بالمعنى الذي أراده دوركيم لهذا اللفظ . ومع ذلك فإن هذه النظريات تتميز بطريقتها الخاصة في تصورهما للمستقبل : في الجملة يعتبر بعضها - وهي ما سوف نطلق عليها اسم النظريات المتفائلة - أن الحروب نتاج لتركيب اجتماعي يمكن أن نأمل ونتوقع أننا سوف نتجاوزه يوماً ما ، بينما ترى الأخرى - وهي النظريات المتشائمة - في الحروب ظاهرة أزلية ، ومع ذلك فهي ظاهرة لا تخلو من فائدة في غالب الأحيان .

### المذاهب المتفائلة

سان سيمون Saint Simon :

توقع سان سيمون أن تكون نهاية الحروب في العصر الصناعي إذ يقول : « إن الصناعة عدوة الحرب وأن كل ما نكسبه من قيم صناعية نخسره

في قيم حربية » فقد كانت الشعوب تتصارع في العصور القديمة ونتيجة للحروب كنا لها أرقاء لاطعامها . ولكن الشعوب الحديثة تنتج بنفسها ، وعلى ذلك تتوقف حالة الحرب أو السلام على الصناعة ، فالنظام الصناعي الذي فيه يتغذى الأفراد عن طريق الانتاج ، هو في سبيله أن يحل عن طريق تطور تاريخي محل النظام الحربي وعمل النظام الاقطاعي القديم الذي كانت فيه وسائل العيش تقوم بطريقة مباشرة كثيراً أو قليلاً على السرقة

### أوجست كونت Auguste Comte :

لما كان أوجست كونت في مبدأ أمره معاوناً لسان سيمون فقد راح يدفع نظرياته إلى أبعد من ذلك عاملاً في سبيل توضيحها ويؤكد أيضاً التمييز بين الحالة الحربية والحالة الصناعية ، فالنشاط البشري ليس له سوى هدفين : الفتح أو التأثير في الطبيعة أي الانتاج ويقول : « كل مجتمع لا يكون منظماً تنظيمياً دقيقاً لتحقيق أحد هذين الهدفين أو الآخر ، لن يكون سوى تجمع فاسد لا صفة له . وكان الهدف الحربي هو هدف النظام القديم ، أما الهدف الصناعي فهو هدف النظام الجديد » ثم أقام في تواضع « قانون الأحوال الثلاثة » قانوناً عن تطور الحرب :

أولاً : الحرب لذاتها أو للحاجة : فلم تكن المجتمعات البدائية تستطيع أن تتعلم النظام في أية مدرسة غير مدرسة الحرب ، وكذلك عاوت الحرب على قيام الرق ومعه قامت الصناعة ، وعلى ذلك فقد كانت الروح الحربية ضرورية ولا مندوحة عنها .

ثانياً : وتستمر الحرب ولكنها تكون تابعة للحركة الصناعية الناشئة ، ثم هي تضمحل كلما نمت الحياة الصناعية ( ويعلم كونت أن الحروب الحديثة تسبب من القتل أقل مما كان في الماضي لأنها صارت محددة أكثر فأكثر ، فإن جملة السكان لا يشاركون فيها بصورة فعالة ، وعلى هذا الوجه يرى في إحلال

الجيوش الدائمة محل الجند الاقطاعيين التقليل من الروح الحربية ) .

ثالثاً : أن التصنيع سوف يؤدي إلى إلغاء الحروب في آخر الأمر ولا يسعنا إلا أن نقرأ في سخرية أليمة تلك التنبؤات التي تتضح عدم صحتها اليوم على الأقل على طول الخط ، وكذلك كان نصيب تنبؤات سبنسر ، إذ في أيامنا يبدو أن الصناعة قد عملت على انتشار الحرب بل أنها جعلتها تشمل العالم كله وأضحت الصناعة في خدمة الروح العسكرية وهي تزداد كل يوم خدمة للحرب والاعداد لها .

هربرت سبنسر H. Spencer :

ويشير سبنسر كما فعل كونت ، إلى الخدمات التي أدتها الحروب في تشكيل العالم ويرى في الوقت نفسه الشورر التي تأتي بها الحروب اليوم . فالكل يعمل على تحقيق ذلك الهدف ، في المجتمع العسكري يكون غير المحاربين مرغمين على تأمين حياة المحاربين وهم بذلك يخدمون الحرب أيضاً ، وبالرغم من أن النمط العسكري أدنى من نمط المجتمع الصناعي ، فلم يكن أقل منه ضرورة لأن السلاح كان سابقاً على الآلة . وفي الأصل إذا لم يوجد السلاح لم يكن هناك آلة . ولأن تشكيل العالم في دول ، أي في مجتمعات كبيرة لم يكن من الممكن أن يتم إلا بالقوة ، وبصورة تدريجية وبدون ذلك الاستخدام للقوة لكان العالم لا يزال يعيش في قبائل رحل صغيرة بدلاً من التجمعات الحديثة المواتية لتقدم العلوم العاملة على تطوير الصناعة .

وفيما يلي تصوير مميز لرأي سبنسر إذ يقول : طالما أن البربرية والطفولة الحضارية قائمة ، فإن من نتائج الحروب أنها تستأصل المجتمعات الضعيفة وتخلص المجتمعات القوية من عناصرها الضعيفة ، ولكن بعد أن تتخطى الحرب درجة معينة من التطور تصبح مصدراً للتأخر لأن « هناك اتجاهاً إلى اختيار الأفراد الأقوى بنية والأصلب غوداً وتعريضهم للموت وترك الأفراد الأضعف بنية للانجاب » .



يرى تارد أن الحرب « طريقة مأساوية غير دائمة للجدلية الاجتماعية » وهي المتحصل من قياسين جمعيين في نزاع : « إذ أن الارادات المتجمعة لدى أمتين ينتهي بها الأمر إلى التجسد في جيشين يقف أحدهما في مواجهة الآخر ». ولكن تتحول الخلافات إلى ما يكفي أن يتحقق شرط واحد : « عندما يوجه سؤال في وقت واحد إلى عدد معين من الناس ، فإن كل أولئك الذين يشاركون في نفس الرغبة ، يشاركون فيها في آن واحد ، ويكتسبون الشعور بهذا التماثل وذاك التوافق » .

ولكن التعارض في ذاته لا يخلق شيئاً : « هل يمكن أن نذكر معركة عظيمة أحدثت تقدماً حاسماً في فن الحرب . . . إن التقدم في جميع المجالات لم يكن ثمرة الصراع أو المنافسة أو حتى المناقشة ، ولكنه كان ثمرة لسلسلة من الأفكار الطيبة التي خطرت في رأس عبقرى على أن تكون متلائمة مع عصرها أي أنها جاءت من التوافق وليس من التعارض » . ولم يكن تقدم فن الحرب نتيجة للمعارك ، ولكن كان نتيجة مخترعات صناعية في أساسها أو فنية أو غيرها والتي لم تغفل الحرب شيئاً في سبيل إنتاجها أو تبنيها ، بل على العكس عملت غالباً على إجهاضها وأوعزت فقط بتطبيقها هنا وهناك في التسليح وفي التكتيك . . . فقد أغرقت المعارك البحرية خلال العصور القديمة وفي العصر الوسيط سفناً حربية لا يحصرها العد ، دون أن تحور نمط السفينة ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف » . ولكن الحرب تطورت بقدر ما تطور العمل على وجه التقريب ، وأكثر مما حدث من تطور في الحب وفي الفنون الجميلة ، وتطورت أكثر كثيراً من الجريمة . فكل شيء في الحرب يتغير من عصر إلى آخر من الوسائل التي تستخدمها إلى الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها » .

#### ماركس والماركسيين :

إذا أردنا أن نلخص آراء ماركس وتلاميذه المتصلة بالحرب ، فإننا نجد أولاً الفكرة الأساسية التي كانت هي الأساس في تبشير جراكوسر بابيف

(Gracchus Baboeuf) إذ يقول : « لم يكن هناك سوى حرب واحدة أزلية ، هي حرب الفقراء ضد الأغنياء » وسوف تكون هي الصراع الدائم بين الطبقات الاجتماعية .

وفيما يختص بالحروب هناك موقف ثان للماركسية يتلخص في تبني النظرية المكيافيلية عن حرب المشاغلة التي تمتاز بفكرة فولتير عن التعمية ، Mystification ، فالطبقات الحاكمة تصرف الشعب عن الصراع الطبقي بأن توحى إليه بالعواطف القومية أو الدينية ، فكانت المدرسة الماركسية حينذاك على العكس من برودون ذات اتجاه أحمى معارض للعسكرية .

يضاف إلى هذه الاتجاهات تفسيرها لأسباب الحرب ، وهي أسباب كلاسيكية في المذاهب الاشتراكية أي أن الأصل في النزاعات المسلحة يكمن في الخلافات الاقتصادية ، وهذه من أهم وجهات النظر لديهم لأنها توضح وتبرز أحد المظاهر الرئيسية للنزاعات المسلحة والتي لا تفصل عنها<sup>(١)</sup> .

### المذاهب المتشائمة

من بين القائلين بهذه المذاهب نجد مدافعين مخلصين يتنبأون عن قناعة بأن الحرب سوف تزداد وتحسن ولنأخذ مثلاً ر. س. شتاينمتر R. S. Steinmetz المدافع « العلمي » عن الحرب الذي يرى أن الحرب لن تختفي ويجب ألا تختفي ، ويقوم شتاينمتر بتفسير رأي هيجل تقريباً عندما يقول : « يأتي النصر نتيجة للتركيب الداخلي للشعوب أثناء الحرب » فالحرب هي النهج الأساسي للانتخاب الجمعي ، وهي صورة الانتخاب التي تختص بها الإنسانية : « فالحرب هي المحك للأمم ، وقد تكون هناك شفقة نحو الضعفاء إذا أردنا ، ولكن لا مكان إلا للأقوياء » .

ويريد ايزوليه (Isoulet) أن يثبت أن القوة هي المرادف للفضيلة وأن الضعفاء

(١) انظر انجلز في كتابه « الرد على ديرنج (Anti-Duhring) . الفصل الثاني والثالث والرابع ( المؤلف ) .

يضاف إلى هذا الدفاع ذلك الدفاع الذي يقوم به علماء الاجتماع الغارقين في القدرية والقسوة « البيولوجية » عن طريق تطبيق مبادئ داروين المتعلقة بالصراع على الحياة وإبادة الضعفاء ، إن جميع هؤلاء العلماء مثل لودانتك (Le Dantec) وكتتون (Quinton) يقولون بتغلب ظواهر العداوة على ظواهر التعاون المتبادل وتقسيم العمل التي تلعب بالتأكيد دوراً عظيماً في الحياة الاجتماعية .

أي غير الفضلاء تبيدهم الحرب ، فالحرب هي إذن وبالضرورة أخلاق ، وقد حدد عامل التفاعل والتجمع تطور الأنظمة ونمو « الحاسة الاجتماعية والصناعية والأخلاقية عند الانسان » .

وعلى هذا المنوال كان رأي نيتشه (Nietzsche) فإن إعجاب جورج سورل بالحرب وبصورة أدق بالصراع ، قد أملت في معظمه كراهيته للأخلاق المسيحية التي يحكم عليها بأنها منافية للبيولوجيا ، ويمجد جورج سورل صراع الجماهير والحرب الأهلية التي تقتل الرأسمالية ، وكذلك الحرب المزمعة التي تستأصل شأفة المسيحية ، وفي رأيه أن أساس المجتمع يتمثل في أساطيره ، هذه الأساطير التي تعمل بوجه خاص على زرع الروح الحربية لدى الجماهير ، وأن ليس هناك فارق كبير بين الحرب الأهلية والحرب مع دولة أجنبية « فإن اضطراباً عاماً يمكن جداً أن يصبح معركة نابوليونية » .

وتبلغ النظرية الحربية أوجها عند جمبلوكتس (Gumplowicz) الذي لا يعدو مذهبه أن يكون دعوة ملحة للحرب إذ يقول : « إن أكبر خطأ وقع فيه علم النفس الفردي هو الافتراض بأن الانسان يفكر ، إذ أن مصدر تفكيره يتمثل في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها » . وهو يفترض وجود كراهية باطنية ودائمة في علاقات جماعة بجماعة أخرى ، فهناك إذن صراع عميت لا مناص منه بين الجماعات ، ومن ثم تنشأ كل الأشكال الاجتماعية وكل الأنظمة ، عن الحرب ، وأن الأصل في قيام الدول هو اجتماع الجماعات المنتصرة بالجماعات الخاضعة ، وفيه تصبح الجماعات الظافرة هي الهيئة الحاكمة المتميزة ، والأصل في القانون أنه مجموع القواعد التي تملئها الجماعة الحاكمة لتسيطر على الجماعة الخاضعة وتستغلها ، وأن التنظيم الطبقي في المجتمع وعدم المساواة الاجتماعية ينشأ عن حقيقة أن المنتصرين يصبحون هم الطبقة الارستقراطية ، وعلى ذلك تتولد كل قواعد السلوك الملزمة عن الحرب وهي مدينة لها بوجودها .

## الفصل الثاني

### ظاهرة الحرب : تحديدها وتعريفها

من الطبيعي أن الأمر يتعلق هنا بإعطاء تعريف مؤقت « لظاهرة - الحرب » ذلك أن التعريف ينبغي أن يتيح لنا تحديد ميدان البحث ، لأن التعريف التقليدي الذي يقول : الحرب هي ... » يفترض معرفة وافية بهذه الظاهرة بينما نحن بعيدون عن ذلك ولهذا فسوف نقتصر على تمييز السمات التي تختص بها .

✽ هناك بوجه عام اتجاه لادماج الحرب في جملة ظواهر الخلاف والصراع ، واعتبارها حالة خاصة للصراع العام ، ولكن عمومية هذه الفكرة ذاتها ، تؤدي إلى تعقيد المسألة بدلاً من توضيحها ، وبالاتقال من فكرة إلى أخرى ومن توسع إلى توسع ، سوف ينتهي بنا الأمر إلى وضع لافتة « صراع » على أشد الأفعال تبايناً واختلافاً ، ومن ثم سوف نقول أن الهضم هو صراع المعدة ضد الأطعمة ، وأن الحرث هو صراع الفلاح ضد الأرض ، وأن البحث العلمي ليس سوى نضال بين الطالب والمعرفة ، وفي أغلب الأحيان تبدو كلمة « صراع » مختلطة أيضاً بكلمة جهد ، وتمثل العقبة العدو ، وعلى ذلك فإن أول تمييز يمكن عمله بين الحرب وأشكال الصراع الأخرى هو أنه يمكن لهذه الأخيرة أن تحدث ضد أشياء لا حياة فيها أو ضد خصوم لا شعور لهم ، أما الحرب فتفترض على العكس وجود عدو نشيط منظم وتتضمن تبادل الفعل

الارادي . وقد عملت نظريات دارون ولا مارك عن تطور الأنواع ، الشيء الكثير لاشاعة هذا النوع من الخلط إذ أنها تبحث في جملتها وبدون تمييز تقريباً كل العقبات التي يجب على النوع أن يتخطاها لأجل البقاء والاستمرار .

ولكن أشكال الصراع والخلاف لا حصر لها ، ولذا ينبغي أن تحدد فكرة الحرب بوضوح وجلاء بالنسبة لكل صور الخصومة المعروفة أو التي يمكن تصورها ، ولأجل أن نتفادى كل خلط يجب أن يركز المنهج السليم على التحديد والتقسيم .

تبدو لنا السمة الأكثر إثارة للحرب في طبيعتها كظاهرة جمعية ، وفي هذا المعنى يجب أن تتميز بوضوح وتنفصل عن أعمال العنف الفردية ، ولكن لأجل أن يتوقف النزاع عن أن يكون فردياً ، ويصير جمعياً ، هل يكفي إضافة وحدة أو أخرى أو اثنتين أو ألف أو عشرة آلاف ؟ إن كل ذلك يتوقف على الظروف وعلى التقسيم الذي لا بد أن يكون تعسفياً ، ويرى بعض المؤلفين أن عدم التحديد هذا يوضح كم يكون يسيراً تقريباً الحرب من الجريمة الفردية . حيث أنه يوجد بينهما سلسلة من الأشكال الانتقالية<sup>(١)</sup> ونحن مضطرون إلى اتخاذ ضابط مرن كل المرونة فيما يتعلق باتساع الجماعات التي تواجه بعضها البعض في نزاع حربي ، إذ يمكن أن تكون هذه الجماعات ضخمة كما هو الحال في الامبراطورية الرومانية والصين القديمة والدول العظمى في عصرنا الحاضر ، ولكن يمكن أيضاً أن تكون هذه الجماعات ضئيلة دون أن تفقد صراعاتها من أجل ذلك ، صفة الحرب الحقيقية ، لأن الحرب تتميز عن الصراع العام وعن الجرائم الفردية بسمتين أخريين لهما أهمية كبرى : عنصر ذاتي هو النية ، وعنصر سياسي هو التنظيم .

قد تكون الحرب في الواقع في خدمة مصالح جماعة سياسية بينما يكون

---

(١) أنظر براديه فودري Pradier Fodéré ؛ الوافي في القانون الدولي المجلد الاول ، الفصل الرابع ص ٥٤٣ ، ( المؤلف ) .

العنف الفردي في خدمة مصالح خاصة ، ولكن يجب علينا هنا أن نسلم أيضاً بالفروق الدقيقة وأول هذه الفروق يتمثل في أن حدود القانون الخاص والقانون العام قد تتغير في غالب الأحيان . ففي بعض البلاد مثل اليابان قبل استسلامها عام ١٩٤٥ ، كان من الممكن اعتبار الحرب مسألة من مسائل القانون الخاص تخص أسرة حاكمة ، وكانت بقية الأمة تعمل في خدمتها مصالح تلك الأسرة . وفي القرن السابع عشر كان يقال أن البذة العسكرية هي « زي خدم الملك » ويتمثل الاعتراض الثاني في أنه من الصعب غالباً تمييز غائية الحروب عن دوافعها ، إذ يمكن القول أن الدوافع هي أمر فردي أو على الأقل تتصل بالسيكولوجية الفردية ، بينما غائية كل حرب مسألة جمعية . ولكن يحدث غالباً أن حروباً بل ومن أعظمها ، ليست إلا امتداداً متدرجاً ل نزاع بين أفراد ينساق إليه شيئاً فشيئاً جماعات بأكملها، وحتى في أيامنا قد تكون ألوان القسوة التي يلقاها بعض الأفراد ، هي في الغالب الدافع - أو الحجة - لانفجارات ضخمة .

وأخيراً فإن الحرب بوجه خاص صفة تشريعية حتى يمكن القول أيضاً أن الحرب هي « عقد » صحيح ، لأنه ليس هناك من حرب حقيقية لا تحكمها قواعد دقيقة دقة كبيرة أو ضئيلة أو قانون صريح أو عرفي . وقد لاحظ بعض الكتاب أن الحرب بعيدة عن أن تكون المعركة الدائمة عند هوبز Hobbes « أي حرب الجميع ضد الجميع »<sup>(١)</sup> أو المعركة المتصلة أي أنها « حالة حرب » أي فترة يجري خلالها تطبيق قواعد تشريعية ذات طبيعة خاصة ويمكن أيضاً أن تتصور فترات طويلة من الحروب بدون اقتتال . وعلى هذا الوجه كانت حروب المواق في القرن الثامن عشر أو ما جرى على الجبهة الفرنسية الألمانية خلال تلك « الحرب الغربية » من سبتمبر ١٩٣٩ إلى أبريل ١٩٤٠

(١) جاءت العبارة اللاتينية « bellum omnium contre omnes »

وإذا ما درسنا « المبارزة » والقواعد التي تحكم المعارك الفردية فإننا نستطيع إدراك بعض المظاهر التي صاحبت نشأة الحروب ودورها ، فالمبارزة هي شجار مؤجل : رجلان أهان أحدهما الآخر أو أنها يعتبران أن خلافاً لا يمكن احتماله قد فرق بينهما ، وبدلاً من أن ينقض أحدهما على الآخر أو يحاول يفتك أحدهما بالآخر غدراً أو ترصداً ، يتفقا على تأجيل هذه المعركة التلقائية ويستبدلان بها نزاعاً منتظماً احتفالياً ، وكما يحدث في الحرب تكبح الجماعات أو قادتها نوازعهم العدوانية لكي لا تنطلق إلا في لحظة محدودة وتبعاً لقواعد معينة .

ويمكن أن نرى أيضاً أوجه التماثل بين مظهر « القضية » الحقيقية للحرب التي تهدف إلى إنهاء خصومة تحدت دوافعها مقدماً وبين المبارزة القانونية ، ذلك أن المبارزة لم تعد في الواقع مظهراً لنزعة عدوانية أو تدميرية ، ولكنها طريقة لقول الحق : إن الله سوف يمنح النصر لمن هو على حق<sup>(١)</sup> ، وفي القانون الدولي الحالي يقال أن الدول مضطرة بطريقة ما إلى أن تتقاتل لعدم وجود تشريع له الصلاحية لحسم النزاعات ، إذ يجتمع المحكمون بعد معظم الحروب وليس قبلها (كمؤتمر برلين عام ١٨٧٨ مثلاً) لاستخلاص النتائج التشريعية لنهاية النزاع ، فكل شيء يجري كما لو أن أعضاء المؤتمر كانوا قد نظموا دون إعلان ورتبوا مبارزة قانونية وانتظروا نتيجتها لأجل أن يستخلصوا منها الآثار التشريعية .

وقد اقترحت تعريفات عديدة للحرب تبعاً لتبني واحدة من وجهات النظر المختلفة تلك ، فيرى كنسي Raib Quincy Wright إذ يهتم بالمظهر التشريعي للحرب ، أن « الحرب هي الأساس القانوني الذي يتيح لجماعتين أو عدة جماعات متعادية أن تحمل النزاع فيما بينها بقواتها المسلحة » ، أما كلوفتز (Clausevitz) فيقول وهو يضع في الاعتبار مقاصد الحرب أن « الحرب عمل

(١) أنظر إسمين Ismein تاريخ القانون الفرنسي .



من أعمال العنف يهدف إلى إرغام الخصم على تنفيذ إرادتنا » ويرى آخرون مثل مارتن Marten أن الحرب عبارة عن « صراع بين الناس » ويتطلب آخرون أيضاً أن يقوم هذا الصراع بين دول مستقلة أي أن يكون لها صفة دولية (وعلى هذا النحو رأى بنكرتشك Bynherschoëk وتونز Twins وجيفكن Geffeken وبلنتشلي Bluntschli وبراديه Pradier وشارل ديوي Charles Dupuis الخ . . . ) وفي بين التعاريف الأكثر تعقيداً نذكر تعريف فون بوجسلافسكي (Von Bogulslawski) الذي يقول : « إنها المعركة التي تشنها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة ماثلة أو شبيهة لها » . أما تعريف لاجورجيت La gorgette فيقول « إن الحرب هي حالة من الصراع العنيف الذي يقوم بين جماعتين أو عدة جماعات من أفراد منتمة إلى نفس النوع بناء على رغبتهم أو إرادتهم » وأخيراً هناك تعريف آخر لكنسي رايت Quincy Wright يقول : « يمكن اعتبار الحرب نزاع بين قوات مسلحة وفي نفس الوقت بين عواطف شعبية أو عقائد تشريعية أو اتفاقيات قومية » .

ومن جانبنا سنقترح التعريف التالي : « إن الحرب هي صراع مسلح ودموي بين جماعات منظمة » وسوف يجد البعض في هذا التعريف توسعاً أكثر مما ينبغي ، وسيجده آخرون ضيقاً شديداً الضيق ، ومهما يكن من أمر يمكن القول بإيجاز أن الحرب هي صورة من صور العنف لها خاصية أساسية هي أنها منهجية ومنظمة بالنسبة للجماعات التي تقوم بها وبالنسبة للطرق التي يديرونها بها ، فضلاً عن أنها محدودة في الزمان والمكان وتخضع لقواعد شرعية خاصة بها ، وهي قواعد تتغير وتتبدل لأقصى حد تبعاً للأماكن والعصور ، وتكمن خاصيتها الأخيرة في كونها دامية ، إذ أنه عندما لا تؤدي الحرب إلى تدمير حيوات بشرية ، لا تعدو أن تكون نزاع أو تبادل تهديدات ، أما « الحرب الباردة » فهي ليست بحرب .

## الفصل الثالث

### الحضائر الاقتصادية للحروب

#### ١ - ضرورة الاعداد المسبق :

إذا ما اتخذنا وجهة النظر الاقتصادية فإن الحرب تتمثل لنا كنوع من النشاط المترف ، وإذا ما تجاوزنا طورشن الغارة ، تتطلب الحرب تحضيراً وإعداداً ، وحتى عندما تشن الحرب من جانب بلد فقير ضد بلد أكثر منه غنى ، تحدوه الرغبة الصريحة في الاستيلاء على ثرواته ، فإنها تتطلب رأس مال أولي ، ويلزم أن يكون هناك أنواع من التسلح ، وينبغي أن يوجد حد أدنى من المؤن ليتاح للجيش المهاجم أن يتجمع ويتدرب ثم ليتغذى على الأقل حتى يحرز أول انتصاراته إلى أن يستطيع العيش على غنائه من العدو ، إذ لا يمكن شن الحرب بدون توفير رأس مال أولي من الأيدي العاملة وفي المواد الغذائية ومن الأدوات ، فكل حرب إذن هي عبارة عن مشروع اقتصادي من جانب معين ، وهي تبدأ بتجميع رأس مال من النقد أو العتاد ، وكلما اتسع ميدانها أي عندما تصبح الحرب أكثر اتساعاً وأكثر اعتماداً على العلم ، فإن الوسائل الاقتصادية المستخدمة والأموال تصبح أشد ضخامة ، وتخضع الحرب للظاهرة العامة للتوسع في وسائل التحضير والانتاج وهي الظاهرة التي يشير إليها بوهم بيفرك Boehm-Bawerk .

وعلى ذلك فإن أي حرب تهتم قبل كل شيء بمسائل التمويل أو على

الأقل بمسائل الانتاج والتكديس) وقد كان الماريشال دي ساكس (De Saxce) يقول : « لأجل أن تشن الحرب يلزم ثلاثة أشياء : أولاً : المال وثانياً : المال وثالثاً : المال » . وكان الحل الكلاسيكي الذي وضع لهذه المسألة ، منذ أن وجد النقد المعدني على الأقل ، هو إنشاء خزانة للحرب ، وكانت معظم المدن في العصور القديمة تمتلك خزانة للحرب تودع في المعابد . وقد ازدادت قوة أثينا الحربية والبحرية وفجأة بعد اكتشاف مناجم الفضة في إقليم لوريون<sup>(١)</sup> إذ استطاعت بهذا الانتاج أن تبني أسطولها الذي يجعل منها القوة البحرية الأولى في شرق البحر الأبيض المتوسط . وكانت الجمهورية التجارية للبلاد المنخفضة ( هولندا ) بفضل مواردها ، هي التي أوجدت جيوشاً حديثة مستديمة ، وإذا كانت تتكون من جنود مرتزقة فقد صارت هذه الجيوش أحسن جيوش أوروبا تنظيمياً وأفضلها تجهيزاً وأشدّها رهبة ، وكذلك كان ورود المعادن النفيسة من العالم الجديد هو الذي أتاح لأسبانيا أن تصبح قوة حربية وبحرية هامة وأن تعد جيشاً ثابتاً استخدمته في متابعة سياسة امبريالية في كل أوروبا الغربية .

وتعتبر الخزانة الشهيرة في برج سباندو<sup>(٢)</sup> التي تأسست بجزء من التعويضات التي دفعتها فرنسا عند توقيع معاهدة فرنكفورت ، وبالمثل كانت خزانة منليك المخبأة في أسفل التمثال التذكاري لانتصاره ، تعتبران من الشواهد الحية الباقية لخزائن الحرب . ولكن في أيامنا بالرغم من أن الجميع يبرأ من ذلك ، لا تزال ممارسة إقامة خزانة للحرب مستمرة بصورة أكثر شيوعاً من الاحتياطات المعدنية لدى بنوك الاصدار أو من العملات الأجنبية التي تمثل الذهب بطريق غير مباشر ، وخير دليل على ذلك أن هذه الأموال توضع في التداول خلال فترة النزاع ، وتبعاً لنتيجة الحرب يتقرر إما أن تتضخم أو تتضاءل ، وقد يكون ذلك أفضل مقياس للتعرف على المنتصر

(١) لوريون Laurion إقليم من اليونان .

(٢) سباندو (Spandou) مدينة قريبة من برلين .

١٠

الحقيقي في حرب ما ، فبعد عام ١٩١٨ بلغ احتياطي الذهب في بنك فرنسا حجماً لم يبلغه من قبل ، وفي عام ١٩٤٥ كان هذا الكثر الوطني قد ضاع بأكمله تقريباً ، واليوم بالرغم من نظريات ستراكوش عن « إعادة توزيع الذهب » فإن القسم الأكبر من هذا المعدن النفيس قد ذهب إلى كهوف (فورت نوكس) Fort Knox حيث يشكل أضخم كثر حربي للولايات المتحدة . وعلى هذا الوجه ينتقل مخزون الذهب من منتصر إلى آخر . وطالما أن الذهب يستمر المعيار الدولي فلا مفر من أن يستمر في القيام بذلك الدور كاحتياطي أخير إذ أن الثقة في أوراق النقد تنهار عندما تزداد القلاقل الاجتماعية سوءاً .

وأخيراً ينبغي ألا ننسى في عملية الاعداد الاقتصادي للحرب ، الميزانيات العسكرية ، إذ يخصص في كل الدول المنظمة جزء من الدخل القومي للتسليح والاتفاق على عدد معين من الرجال ( المحاربون والفنيون وعمال الترسانات والاستحكامات والتجارة وطلاب المدارس الحربية والبحرية ) الذين يعملون في الاعداد للحرب والوقوف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم .

وعلى هذا الوجه تلعب جملة الاعداد للحرب دوراً في « توزيع الدخل » التي تذهب إلى العسكريين وأشباههم وأسرهم وكما يقول كينز (Keynes)<sup>(١)</sup> : « أن الاعداد للحرب يساعد في تحقيق العمالة الكاملة » وإلى بلوغ التوازن الاقتصادي إلى حد ما ، وبذلك تداخلت التكاليف الحربية في وجودنا القومي وفي ميزانياتنا لدرجة أن مشاكل خطيرة تنشأ نتيجة البطالة والتوزيع ، إذا ما الغيت فجأة تلك المصروفات .

---

(١) كينز : هو جون .م. كينز J. M. Keynes عالم اقتصاد بريطاني ولد في كامبردج ( ١٨٨٣ - ١٩٤٦ ) وفي رأيه أن على الحكومات أن تعمل جهدها لتحقيق العمالة الكاملة للأبدية العاملة إذ إنه يفضل إعادة توزيع الدخل تزيد القوة الشرائية للمستهلكين في تناسب مع نمو وسائل الانتاج .

ولكن الميزانيات العسكرية تتوقف حينما ينظر إليها زاوية التوازن الاقتصادي الداخلي، خاصة عندما تكون الدولة مضطرة إلى الاستيراد من الخارج أسلحة ومواد أولية وأشياء أخرى، ومن ثم كان قيام المشاكل الخاصة بموازنة الديون والمدفوعات، وكذلك المشكلة المزعجة بمبادلة النقد، وأن حرب عام ١٩١٤ هي التي قلبت فجأة أسعار المبادلة وأسعار القطع في أوروبا حيث كانت كل أنواع النقد مستقرة، ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الأمور في التفاقم كلما أصبحت الحرب ميكانيكية ولم يعد في الامكان أن يقوم بها فقط رجال مزودون بسلاح بسيط، وهذا الموقف يؤدي إلى القضاء التدريجي على القوى التي لا تمتلك أرضاً واسعة وعلى الأخص موارد كاملة من المواد الأولية.

فقد كانت فرنسا مثلاً تمتلك سلاحاً ضخماً من الخيالة وكان تموينه لا يكلفها أية عملات إذ كان ذلك يتحقق عن طريق الزراعة الوطنية وعندما أصبح هذا السلاح آلياً فهو يتطلب استيراد كميات ضخمة من النفط.

وقد عرفت كل الدول في كل العصور بقدر قليل أو كبير من الارتياح وسائل تقنية ومذاهب اقتصادية ونقدية تهدف في آخر الأمر إلى حماية وإثراء خزانها الحربية وقوة اقتصاد الحرب لديها.

وإن السعي للحصول على المعادن النفيسة والحماية التجارية والاكتفاء الذاتي والاستراتيجية الاقتصادية الحديثة في مراقبة النقد... الخ. ليست في الحقيقة إلا إجابات مختلفة عن هذه المشاكل.

## ٢ - الآثار الاقتصادية للحروب :

بعد الطور العنيف من الاستهلاك المتعجل للثروات ( ويدخل تحت هذا العنوان التخريب الذي لا يعدو أن يكون صورة خاصة من

الاستهلاك) ، فإن الحرب عندما تبلغ نهايتها تؤدي إلى انتقال الثروات إذ الواقع أنها تقسم المحاربين إلى منتصرين ومنهزمين .

ومن ناحية أخرى تحدث الحرب تغييرات في الابنية الاقتصادية وتحولاً في رؤوس الأموال المستثمرة وتساعد على تطوير بعض الصناعات أو بعض صور الانتاج ، وتعمل أيضاً على تغيير توزيع الدخول ووضع رؤوس الأموال ، ونظراً للأعباء الجديدة التي تنجم عنها ( من معاشات وغرامات وتعويضات الخ . . ) فإنها تغير من طبيعة الموازنة والمصروفات العامة ، ونتيجة للبنود الاقتصادية لمعاهدات السلام يحدث تحول في أسواق التصريف والتجارة الخارجية ، وتؤثر بالتالي على الصناعات التي تعتمد عليها ، وتعمل على اختلال الرجال الذين تستخدمهم هذه الصناعات . وعلى هذا الوجه يمكن لنتائج الحروب أن تحدث تحولاً عميقاً في الحياة وفي التركيب الاقتصادي للأمم .

### ٣ - الأسباب الاقتصادية المفترضة للحروب :

هناك نظريات ذات أهمية كبرى ترى أن العوامل الاقتصادية هي العلة الأولية لجميع الحروب ، بل يذهب البعض أيضاً إلى حد التسليم بأن كل الأسباب الأخرى التي تمكن أن تقدم هي أسباب خادعة وأنها لا تعدو أن تكون البواعث الظاهرية لها .

ومع ذلك فإن كلمة « اقتصاد » ذاتها ، بعد التوسع في استعمالها قد أثارت الكثير من الخلط ، فهي تتضمن في الواقع وجهات نظر مختلفة ومتعارضة أيضاً : مثلاً حروب الفقراء وحروب الرخاء الزائد وحروب الجسد والجشع الامبريالي أو حروب الحاجة الحقيقية . إن التزاعات في بدايتها ونهايتها اقتصادية كلياً أو جزئياً الخ . . . وتقضي المنهجية بأن ظاهرة بهذا الاتساع تتطلب التحليل والتقسيم .

لا جدال أن كل حرب ، مهما تكن أسبابها ، تحدث كما رأينا ، اضطرابات اقتصادية ، وبإختصار فإن لكل الحروب آثار اقتصادية ولكن بعد انتهائها . ولأجل أن يقول أن هناك حقائق اقتصادية في أساس حرب ما لدى المعتدي على الأقل ، ينبغي أن نستطيع التأكيد بأن العلة أو على الأقل « المحرك » للنزاع هو قطعاً من نوع اقتصادي وأنه كان العنصر الأولي الوحيد والحاسم في الوقت نفسه .

ويبدو لنا أن حروباً قليلة جداً تتوافق مع هذا التعريف ، والأمثلة التي لا جدال فيها هي الأمثلة الخاصة بالقبائل البدائية التي تعاني من نظام اقتصادي لا مرونة فيه ، والتي تهاجم كما تفعل بعض أنواع النمل ، جيرانها للاستيلاء على ما لديها من مخزون الطعام . هذه هي الحروب الوحيدة ذات الصبغة الاقتصادية تماماً ، ولكن عندما يتعلق الأمر بحضارات مركبة تصبح الحروب متعددة الجوانب في أهدافها وفي مغزاها . ويوجد في حاجات المجتمعات العلمية والتقنية وفي نشاطاتها إمكانيات مرونة واسعة جداً في مستويات المعيشة وفي التعويضات والبدلات<sup>(١)</sup> ، وليست الحاجة الاقتصادية منها أبداً فورية ولا مجرد حيوية . فهل يمكن القول عن أحد الحروب النادرة التي كان لها دافع اقتصادي صريح ، وهي « حرب الأفيون » بين إنجلترا والصين ، إن الأمر كان يتعلق بحاجة حيوية ملحة ؟ إنها بالأحرى حرب ترف كان الغرض منها مد الاقتصاد البريطاني بمزيد من الاثراء .

ولكن على وجه الخصوص ابتداء من أي لحظة يمكننا القول أن الحرب قد فرضت بطريقة لا مفر منها بسبب ضرورات اقتصادية ؟ ألا يكون أكثر حكمة أو أكثر نفعاً أن يعزف الانسان عن الاثراء أو أن يتقبل الاقتصار في نظام معيشته خيراً من قبول مخاطر ومغامرات العدوان ؟ ويمكن أن يثار هذا التساؤل بالنسبة للدول كما يثار أيضاً بالنسبة للأفراد ، وهل هناك مستوى لا

---

(١) يبدو لنا « قانون التعويض » معبراً عن الظاهرة الأكثر دينامية في الاقتصاد السياسي .



يمكن للدولة ما أن تقنع بأقل منه أو هل هناك ضرورة حيوية مطلقة أو هل هناك تقشف لا سبيل لاحتماله ؟ إننا إذا ما تعمقنا في الدوافع التي كانت وراء معظم الحروب الاقتصادية نجد أنها تنتهي بأن تصبح حروباً سيكولوجية ، إذ أن نشوة السلطة أعظم من نشوة الثراء . ومع ذلك ألا يسيطر أي شخص يمسك بيديه مقاليد السلطة على ثروة الآخرين ؟ لقد كان أحد الشيوخ البرابرة يقول « بحد يدي سوف أستولي على ذهبك » .

لقد تكرر القول مثلاً أن ألمانيا قد أرغمت على حرب عام ١٩١٤ نتيجة للمنافسة الاقتصادية الباهظة التكاليف التي كانت تمارسها ضد القوى العظمى الأخرى الصناعية والمصدرة ، وأنها كانت على شفا الافلاس بعد الاستثمارات الضخمة والاستخدام الزائد للقروض ، ولكن ليس هناك من شيء أبعد عن الحق من هذا الزعم ، فقد كان من الممكن لألمانيا أن تنقذ رجال الصناعة والتجار الألمان بأن تخصص لهم جزءاً ضئيلاً جداً من تكاليف تسليحاتها السابقة من برية وبحرية أولاً ثم بعد ذلك من تكاليف حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وكان باستطاعتها أيضاً أن تتمتع بازدهار عظيم جداً بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٣٩ لو أنها استثمرت في مشروعات إنتاجية نصيباً ضئيلاً من مواردها ومن الطاقات التي بذلتها لإعادة تسليحها خفية في مبدأ الأمر وعلنياً فيما بعد ، وأخيراً من المستحيل حتى لدى أكثر الناس أن نجد أقل سبب اقتصادي بالنسبة لبعض الحروب وليس لأقلها شأنًا مثل حرب عام ١٨٧٩ .

### حروب العوز أو الوفرة

مهما يكن من أمر فإن صور اختلال التوازن الاقتصادي التي تتكفل بالتحريض على العنف لا يمكن إلا أن تكون من نوعين : العوز أو الوفرة .

إن العوز هو الذي يثير النزاعات الحربية في المجتمعات البدائية التي لا نعي شيئاً عن التجارة والصناعة ، ويذكر المؤرخون كثيراً الجفاف المتزايد في

هضاب وسط آسيا ، هذا الجفاف الذي اضطر قبائل المغول إلى اجتياح الأراضي من حولهم مشيرين تحركات حقيقية بلغوا من ورائها آفاقاً بعيدة نتيجة للهجرات الاضطرابية أو الغارات الحربية وهذه هي أيضاً حال القبائل الرحل في إقليم الصحراء الكبرى والجزيرة العربية . ولكن هذه كانت أوضاع شاذة حتى لدى البدائيين ، وذلك لأن البدائيين يتطلعون غالباً إلى الحرب لأجل الحصول على الرقيق أو لسبي النساء أو للانتقام من إهانات لحقتهم أو لخصومة تقليدية نحو هذا الجار أو ذاك ، أو قد تكون مجرد نوع من الرياضة ، وعندما يتعلق الأمر بمجتمعات مركبة فإنه يصعب علينا التسليم بأن يكون العوز من بين أسباب الحرب . وعلى وجه التدقيق فإن ألمانيا تصبح محبة للسلام بكل إخلاص في الفترات التي عليها أن تعاني حقيقة من هذه الشدائد .

وإن التجربة التاريخية تثبت أن الدول تبدو أكثر ما تكون ميلاً للحرب في حالة الرخاء ، وأن فهم ذلك ليس بعسير إذا فكرنا أن الحرب لا يمكن إعدادها إلا بفائض من الأموال . ويمكن القول أن ألمانيا عندما قامت بالهجوم في عام ١٩٣٩ ، كانت أغنى دول أوروبا ، إذ كانت تحت تصرفها موارد مختزنة من كل نوع ومن الأسلحة ، أي ثروات حقيقية من منتجات موجودة ، وكانت ، في تلك الفترة على الأقل ، أعلى من ثروات كل الأمم الأخرى .

وأن في الحروب الاستعمارية مثلاً أكثر إثارة للدهشة أيضاً ، ذلك أن تلك الحروب كانت تشنها دائماً البلد الأكثر ثراء ضد البلد الأشد فقراً . إذ إن الدول الأوروبية التي كانت حينذاك في قمة الثراء والاستقرار هي التي هاجمت أمم الشرق التي سقطت في اضمحلال عميق ببلاد أفريقيا التي لا تزال متبربرة ، وبالمثل قامت روما وهي في قمة ثرائها بغزو بلاد الغال وبلاد الرين وأواسط أوروبا .

أما الحرب المتعلقة بالأسواق فهي أيضاً حروب وفرة في الانتاج إذ أنها

حالة ما قبل الحرب - وحالة الحرب - وحالة الإصلاح .

ونعتقد أن خير مثال على الحالة السابقة للحرب هي حال الاقتصاد الألماني في عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٠ ، وهي فترة تتميز بالادخار الاجباري وإنشاء المستودعات الضخمة وازدياد الطلب على الصناعات المعدنية والكيميائية وقد نتج عن ذلك ازدهار عظيم : كانت عروض العمل متوفرة ، وارتفعت الأجور ، وكانت الصناعات تعمل بأقصى طاقتها ، وكانت هناك حوافز للابداع ، وشمل التجديد كل شيء ، وبلغ الاحساس بالرخاء أوجه ، الأمر الذي أدى بنا للقول : « أن ألمانيا لا تشعر بسعادة أبداً إلا عندما تكون حبلى بحرب » .

وتتميز حالة الحرب الحقيقية بالاستهلاك السريع للأحوال المكسدة وينطلق رجال الصناعة والمتجون إلى العمل بأقصى طاقتهم ، ويروح المحايدون من جانبهم إلى الافراط في إنتاجهم لتزويد المتحاربين .

وأخيراً وبعد انتهاء القتال تواجه حالة اصلاح ما خربته الحرب تركيباً اقتصادياً قد تحول تحولاً عميقاً ، ذلك أنه خلال فترة الحرب تزيد تجهيزات القطاع الذي يصنع على التحديد أدوات الانتاج زيادة ضخمة ، وخلال فترة معينة يجد هذا القطاع سوقاً كافياً تماماً لتصريف إنتاجه في إعادة بناء ما خربته الحرب ، ولكن عندما تنتهي فترة إعادة البناء ، فإننا نجد أنفسنا من جديد أمام تهديد البطالة ونقص في تسويق المنتجات ، ومن ثم تنشأ الأزمة وينبغي الاختيار بين أمرين : إما أن ندع جزءاً من الادارة الصناعية تصدأ وإما إيجاد حلاً جزئياً ، وحتى الوقت الحاضر فإننا نقع مرة أخرى وبدون كلل في برامج التسلح ، ذلك السوق الشره للصناعات المعدنية الوفيرة .

ومن ناحية أخرى ينجم دائماً عن الحروب ارتفاع في الأسعار وزيادة في الاستهلاك ، وتبدو هاتان الظاهرتان إذن متناقضتان مع الأزمات الاقتصادية ، فالحروب تبتلع المخزون الفائض من المنتجات ومن الرجال ، أي أنها تبتلع

تستلزم أن يكون لدى الأمة فائض من الانتاج تبحث له عن مشترين في الخارج<sup>(١)</sup>.

قال انجلز : « ليس العنف عمل إرادي فقط ولكن ممارسته تتطلب شروطاً مسبقة مادية تماماً ، أعني أدوات . . . » ولكن على العكس من ذلك نقول أن وجود الأسلحة لا يكفي إذا لم تكن هناك رغبة في استخدامها ، بل أكثر من ذلك إذا لم توجد تلك النزعة القتالية ، فإن الناس سوف يستخدمون قواهم الانتاجية في صنع أجهزة التبريد ( الثلاجات ) بدلاً من الدبابات ، وطائرات السياحة بدلاً من قاذفات القنابل . وإذا كان هناك تأثير متبادل بين التقنية والعنف ، فإنه بالأحرى تكون التقنية هي التي تبدو لنا أنها في خدمة العنف ، وأن النزعة الحربية هي التي تدفع إلى إنتاج الأسلحة في أول الأمر ثم إلى استخدامها فيما بعد .

#### ٤ - الحروب والأحوال الاقتصادية :

لقد رأينا قيام الأزمات الاقتصادية الدورية ابتداء من القرن الثامن عشر ، فقد أدت المكانة المتزايدة التي اتخذها ظهور وسائل جديدة للانتاج إلى استغلال المدخرات المتزايدة على الخصوص في إنتاج الآلات وقيام الانشاءات ، ولسوء الحظ كانت الصناعات الحربية في الجبهة هي بذاتها التي تمتلك الانتاج وبصورة أساسية صناعة التعدين ، وإلى حد كبير الانشاءات ( طرق المواصلات الاستراتيجية والموانئ الحربية والتحصينات والمعسكرات الخ . ) ، وهذا ما يتيح لنا أن ندرك كيف أن الحرب أو مجرد التهديد بها يؤثر على الأحوال الاقتصادية . ويمكننا أن نميز منها مظاهر ثلاث :

(١) لقد فسر كثير من الاقتصاديين حرب ١٩١٤ من وجهة نظر ألمانيا بأنها حرب أسواق أي حرب وفرة ( فقد كان لديها حينذاك إنتاج ضخم ) وحرب عوز إذ كان هدفها الصريح الحصول على المواد الغذائية والمواد الأولية التي كانت تنموها وهكذا يكون تأثير الاقتصاد في الحرب ذا وجهين إذا لم يكن تناقضاً . ( المؤلف ) .

أيضاً البطالة ، وينشأ عن الحاجة إلى الرجال والخسائر زيادة الطلب على الأيدي العاملة مما يؤدي إلى ارتفاع عام في الأجور ، وبصفة خاصة زيادة عدد الوظائف ، ذلك أن الحرب تخلق دائماً بصورة أو بأخرى أسواقاً هائلة بالنسبة للرجال .

في فرنسا مثلاً ، خلال حرب ١٩٤٠ - ١٩٤٥ كان من أثر التمويل الاجباري والرقابة على الأسعار وعلى الانتاج ، والتنظيمات التعاونية والبوليسية إن ارتفع عدد الموظفين من سبعمائة ألف تقريباً في عام ١٩٣٩ إلى ما يقرب من مليونين عام ١٩٤٦ ، وعلى هذا الوجه تعجل الحرب بالنمو المتميز للاقتصاد الحديث ، وتضخم ما يطلق عليه كولن كلارك وفوراسيتيه (Fourasitié) القطاع الثالث وهو الخاص بالوظائف الادارية والفنية .

وباختصار قد أوجد الاقتصاد الموجه للحرب من جانبه تعبئة إدارية متوازية مع التعبئة العسكرية ، ولكنها أكثر دواماً حيث أن الأمر يتعلق هنا بتعبئته دون خسائر . ولا جدال في أن هذا الأثر الاقتصادي للحروب يؤدي إلى ازدياد الروح الحربية كلما نشأ في البلاد الصناعية ضمور اقتصادي شديد .

وكان ماركس يرى أنه طالما يتزايد التركيز في المشروعات فإن الرأسمالية سوف تنزعزع نتيجة لأزمات عنيفة أكثر فأكثر وهي إذ ترغمها على الحرب تنتهي بها إلى الدمار التام . وأن الأزمة الاقتصادية لعام ١٩٣٠ التي خيم فيها مناخ الحرب على العالم تتوافق مع هذه النظرة . ومع ذلك ينبغي أن نلاحظ أن ماركس قد عرف عالماً اقتصادياً يسيطر عليه النقد المعدني مما ينجم عنه نوع من عدم المرونة في الأسواق وفي الاستثمارات ، ويمكن للتنظيمات التقنية الحالية للنقد ، كما رأى كينيز Keynes ، أن يغير وجه المشكلة وعلى الخصوص فيما يتعلق بالبطالة .

ومن ناحية أخرى فإن الأزمات الاقتصادية هي ظاهرة جديدة نسبياً ،

فقد تولدت الأزمات الاقتصادية منذ أقل من قرنين ، وهي فترة ضئيلة جداً بالنسبة للحرب التي هي ظاهرة قديمة قدم الانسان ، ثم أن هذه الأزمات لم تتأثر بها في مبدأ الأمر سوى البلاد الصناعية أي انجلترا وبعض بلاد أوروبا الغربية .

وفي آخر الأمر لا يمكن أن نقرر في جدية أن الأزمات الاقتصادية تؤدي إلى الحرب ، ذلك أن أشد الأزمات عنفاً لم تؤد إلى الحرب ، إذ أنها كانت تحدث في عالم مندهش من جديتها وجاهل لطبيعتها وبالتالي عاجز عن أي علاج لها ، وأعني بها أزمات النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بل على العكس كانت تلك الحقبة إحدى الفترات التي خيم فيها السلام في تاريخ أوروبا ، وهي تلك الفترة بالتحديد التي فيها اعتقد بعض المفكرين من أمثال أوجست كونت وهيربرت سبنسر ، مستندين إلى مناخ عصرهما وتاريخه ، إن التصنيع سوف يعمل على تأجيل الحرب أو حتى على اختفائها وهذه هي ميزته الوحيدة .

## الفصل الرابع

### المظاهر الديموغرافية للحروب

#### ١ - الآثار الديموغرافية للحروب :

تعرض لنا كل حرب مظاهر عديدة ، ولكن هناك مظهر واحد منها يشكل أثراً لا يمكن إغفاله لأننا نجد في كل حرب لدرجة أنه يمكن أن نرى فيه جوهر الظاهرة ذاته : إنه القتل الجمعي للناس حين يخضع لنظام وتكون غاية ، ذلك أنه ليس هناك من حرب بدون قتل للناس . وتبعاً لذلك كان لكل الحروب آثار ديموغرافية ، إذا لم يكن ذلك سوى أنها تزيد في معدل الوفيات بصورة غير عادية .

إن الدروس الوحيدة الثابتة التي يمكن استخلاصها من دراسة موضوعية للنتائج الديموغرافية للحروب هي الآتية :

أولاً : إن زيادة الوفيات خاصة ديموغرافية ثابتة وعامة للحروب . ولكن هذه الزيادة تتغير إلى أقصى الحدود تبعاً للأحوال ، وأيضاً تبعاً لأوجه الصراع ذاته ، وهي متغيرة أيضاً بحسب نتيجة الصراع لأن طبيعة الخسائر ونسبتها المثوية وتوزيعها ليست هي بذاتها بالنسبة للمنتصر وبالنسبة للمنهزم - وعلى العموم لا يفقد المنتصر إلا جنوداً أي شباناً ، أما الأمر عند المنهزم الذي غزيت بلاده واحتلت وخربت وهدمت بطريقة مرسومة ، فإن الضحايا تكون

في الوقت نفسه أكثر عدداً وأشد تنوعاً . وحيث أن كل حرب تشمل طرفاً منهزماً أو على الأقل مغزواً ، فإن هناك حقائق سسيولوجية ينبغي أن توضع في الحسبان .

ثانياً : يمكن أن نضع الحرب من بين أنظمة التدمير الارادي ونحن نسمي على هذا الوجه كل الأنظمة التي تعمل إما على منع المواليد وإما على تخفيض عدد الأحياء . ولا يمكن لهذه النظم المدمرة عن وعي أن تختلط بالعلل غير الواعية وغير الارادية للوفيات الغير طبيعية مثل الجماعات أو الأوبئة . فالنظم الأولى هي أنظمة بالمعنى السسيولوجي للكلمة وهي متناسبة مع التراكيب الاجتماعية ومع العقلیات ومع الأفعال التي تملئها . ولا شك أنه قد يحدث خلال نزاع ما أن تتفجر مجاعات أو أوبئة ، ولكنها تشكل في هذه الحالة جزءاً من الأحداث أو في نتائجها ، بل إنها نتائج ثانوية ، إنها انعكاسات أو آثار<sup>(١)</sup> .

ثالثاً : في جميع الحروب تتمثل الخسائر المباشرة أساساً في موت الرجال . صغار السن . وعندما يكون هناك محاربون من أعمار مختلفة فالعرف يقضي بأن يتعرض الأصغر سناً لأشد الأخطار وهذا العرف يتعلق بتقليد عسكري عام جداً وقديم جداً . وفي التنظيم العسكري الحديث تتلقى فرق الجيش العامل أي الأصغر سناً ، الصدمات الأولى ، وقد أيدت تلك الفرق في الشهور الأولى من عام ١٩١٤ . وفي كل الجيوش تتألف من الشباب فرق الهجوم من المشاة والفدائيين والطلائع ورجال المظلات ومن قبل فرق الخيالة التي كانت تقوم بأعباء مميّنة . وفي الجيوش الرومانية كان نظام المعارك يتضمن ثلاث خطوط متتابعة حسب السن ، الأصغر سناً كانوا في المقدمة . وأخيراً وبعد انتصار ساحق ، عندما يشتد المنتصر في تحطيم المنهزم فإن الافناء ينصب بصورة أساسية على الشبان . أما البدائيون في مثل هذه الحالة فيذبحون

(١) أنظر مؤلفات م. ل. هرش M.L. Hersch عن الآثار الديمغرافية لحرب ١٩١٤ - ١٩١٨



فيما يتعلق بالمظهر الديمغرافي للحرب ، ماذا يمكن أن تكون هذه الوظيفة ؟ .

لقد رأينا أن للحرب نتيجة أساسية تلخص في أنها تسبب ارتفاعاً في الوفيات وفي الغالب انخفاض مؤقت على الأقل في المواليد . إننا نجد أنفسنا إذن إزاء نقص يجب تحصيله ، أي عجز في عدد السكان ، وهذه هي ، كما يبدو لنا ، العلاقة الأكيدة لوظيفة التدمير والتبديد أو الافناء المتعجل .

يقول برجسون : « توجد الحياة حينما يوجد نظام من أجسام قابلة لتجميع الطاقة من مصدر ما مثل الشمس ثم طرد هذه الطاقة وإطلاقها بصورة متفجرة تقريباً » أي أنه التجميع البطيء الذي يتبعه انطلاق مفاجيء هو خاصية فسيولوجيتنا الحيوانية ، فإن ضربات القلب أو الهضم أو الولادة أو الموت عمليات مستمرة . بل إن هناك عمليات مماثلة نلقاها في حياتنا السيكلوجية وعلى الخصوص في عملية الابتكار . وبالمثل يسير كل شيء كما لو أن الحرب كانت وظيفة اجتماعية رجعية ، تتميز بتجميع رأسمال بشري في مجتمع ما ، ثم يقذف بجزء منه بوحشية في لحظة معينة .

لقد اقترحنا أن نطلق « تركيب متفجر » على التركيب الديمغرافي الاقتصادي لجماعة معينة فيها يزيد فائض كبير أي زيادة في الشبان ، عن الأعمال التي لا غنى عنها لاقتصادها . هذا الموقف يمهّد لاندفاع حربي إذ أنه يميل إلى أن يتصغى في توسع مفاجيء ذي خاصية تشنجية جماعية ، ويتمثل نمطه التقليديان في الهجرة الجماعية أو التجريدة الحربية ، ذلك أن الحرب ليست في آخر الأمر سوى هجرة مسلحة ومنظمة تارة إلى بلد العدو وتارة إلى

---

(١) عن دورية الظواهر البيولوجية والاجتماعية أنظر كوسترتن Kostitzin « البيولوجيا الرياضية » وكتابنا الرأفي في علم الاجتماع (Traité de Sociologie) طبعة ١٩٣٥ بابو ص ٣٢١ وما بعدها .

الرجال ويسبون النساء وإذا ما حافظوا على الصبية فيكون ذلك بكثير من التحرز بهدف تغيير عقليتهم . وعلى هذا الوجه كانت الحال مع الأطفال اليونانيين الذين كون الأتراك منهم فرق الانكشارية .

## ٢ - الوظيفة الديمغرافية للحروب :

إن الوظيفة في علم الأحياء عبارة عن عملية تتكرر بانتظام في جميع الأجهزة العضوية لنوع بذاته . وقد رأى دوركيم في مبدأ الأمر أن الوظيفة نظام لحركات حيوية بغض النظر عن نتائجها ( وظيفة الهضم مثلاً ) ثم رأى فيها علاقة تطابق موجودة بين هذه الحركات وبعض حاجات الكائن الحي ( وظيفة الهضم مثلاً ) وعلى هذا الوجه لا يمكن لهذه الكلمة أن تطبق إلا على الكائنات الحية ، ولأجل أن تكتمل فكرة الوظيفة ينبغي أن ندخل فيها تكرار الفعل عن طريقة تتضح هذه الوظيفة . ولكن في الأجهزة الحية المركبة وبصفة خاصة في المجتمعات المتميزة لا يكون التكرار متماثلاً دائماً بصورة دقيقة ، وفوق ذلك فإنه يدع مجالاً للتجديد والابتكار .

إذا ما اكتملت فكرة الوظيفة على هذا الوجه ، فإنها تنطبق تماماً على نظام ما تماماً كما تنطبق على عضو ما . ولكن الحرب هي بلا جدال نظام اجتماعي ، وإذا ما استولت علينا الدهشة المزوجة بالألم في كل مرة ينفجر صراع ما ، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون الحرب نظاماً اجتماعياً ثابتاً نلقاه حينها تكون هناك جماعات بشرية منظمة على اتصال فيما بينهم .

وهكذا تكون الحرب أحد الأشكال الرئيسية للعلاقات بين المجتمعات ، إذ أنها أحد الشواهد الواضحة والقاسية ، إذا أردنا ، ولكن لا سبيل لانكارها إذ أنها تمارس بواسطة أعضاء اجتماعيين متميزين وهي ظاهرة خاضعة للتكرار الدوري ، أو على الأقل ذات أشكال دورية ، ولكنها مع ذلك ذات طبيعة خصبة في تجديدها ، ويمكن إذن أن نفترض بحق أنها

الحياة الأخرى ، ومهما تكن نتيجة الحرب فإنها تسبب في جميع الأحوال توقفاً لفترة طويلة أو قصيرة في النمو السكاني ، فينحرف المنحنى المتصاعد أو ينقطع ولذا فقد اقترحنا أن نطلق « الاسترخاء الديمغرافي » على توقف النمو أو إبطائه المفاجيء في النمو وهي الحالة التي تتلو بالضرورة كل حرب<sup>(١)</sup> .

### البناء المتفجر : Structure Explosive

من أشد مسائل علم الاجتماع إثارة مسألة معرفة ما إذا كانت بنية المجتمعات وتركيبها وتوازنها ينعكس تلقائياً على الاستعدادات السيكولوجية لأعضائها ، ألا تثير فيهم بعض النزعات الجمعية التي تنطلق من عقالها عندما تنهيا لها الظروف المؤاتية ( وغالباً ما تكون هي بذاتها التي يخلقها ) وتصبح بعد ذلك واعية بها عبر حجج وبراهين مبررة ؟ ولكن عن نية طيبة مع ذلك لأنهم يكونون غير واعين بطبيعتها المخادعة .

إن الشباب المهيأ للعمل ويبقى بلا وظيفة ، يكون على استعداد لارتكاب أعمال الطيش ، وهم بذلك يشكلون قوة مثيرة للاضطراب في المجتمع ، وتبعاً للنقاط الأقل مقاومة التي تعرض لهم ، وتبعاً للظروف التاريخي والامكانات السياسية والتقنية ، فإن شهواتهم وطيشهم يتجه بهم إلى حرب أهلية أو حرب أيديولوجية أو إلى الهجرة أو إلى حرب خارجية ، ذلك أن الأمر كله يتلخص في معرفة استخدامهم ، وهذا ما يفسر اندفاع الحكومات العسكرية والامبريالية إلى التضخم السكاني ( الديمغرافي ) ، وعن طريق المزايا المالية أو العقوبات من كل نوع تكثر من أطفال الخوف وأبناء العلاوات الاجتماعية . ومن ثم نجد أنفسنا مع ذلك إزاء دائرة مفرغة محزنة والتي عليها تتبعثر كل النوايا الطيبة . فالخوف من الحرب والانشغال بدفع الاعتداء يدفع إلى ولادة جنود المستقبل . ولكن ذلك التكاثر نفسه يثير قلق

---

(١) انظر كتاب « مائة مليون من القتل » ص ٤٧ وما بعدها .

الجيران في خارج البلاد ويحرض النزعات الحربية في الداخل .

لنضرب مثلاً على ذلك في عهد الثورة كانت فرنسا تعاني من زيادة في السكان وقد تمثل ذلك في أرقام كلية فيما يتعلق بالفنيين الزراعيين والصناعيين في ذلك العهد<sup>(١)</sup> . وكان الأمر كذلك بالنسبة لسكان بقية بلاد أوروبا . وكان أبناء الفترة الأكثر إنجاباً من تاريخها قد بلغوا حينذاك سن الرجولة . فالتقى هذا الفائض من الرجال بنفسه عن اقتناع في أتون الثورة المثالية في بادئ الأمر ، وبعد ذلك في الحروب الأهلية والارهاب الأكبر ، ثم في حرب جمهورية حكومة الديركتوار (Directoire) ، وأخيراً في حرب لأجل حكم أسرة من نمط العصر الوسيط بما فيها من فرسان مغامرين وإقطاعات وماريشالات ثم لأجل امبراطورية مقدسة . ثم عاد كل شيء هادئاً ، ولكن بعد جملة بلغت مليون وسبعمائة ألف من الموق من البالغين ، وهذا يعني فترة توقف تصل إلى حوالي ١٦ ٪ من عدد السكان الذكور .

وقد ثبت أن الفترات الطويلة للحروب المدمرة تتلو بصفة عامة فترات الازدهار السكاني ، فقد جاءت حرب المئة عام بعد بلوغ الزيادة السكانية حد التخمة في مستهل القرن الرابع عشر ، وحدثت حروب الثلاثين عاماً والحروب الدينية بعد أن بلغ عدد من جديد غايته القصوى في القرن السادس عشر . وفي نهاية القرن الثامن عشر عندما تأكدت الثورة الديمغرافية نتيجة لاستخدام التطعيم ، جاءت حروب الثورة الفرنسية والامبراطورية ، وعلى هذا الوجه توضح التجربة التاريخية أن أية حرب عظيمة لا يمكن تصورها خارج مناخ خاص تخلقه الزيادة الكبيرة في السكان ، ولا يمكن أن تقوم حرب عظيمة بدون تركيب ديمغرافي مناسب<sup>(٢)</sup> .

ولا تبدو الحرب على هذا الوجه كظاهرة أولية ولكنها بالأحرى كظاهرة

(١) أنظر ج. لاتيني G. Latinier في مجلة Population عدد يناير ١٩٤٦

(٢) أنظر اميل لوفاسر E. Levasseur «سكان فرنسا» مجلد الفصل الأول

مركبة أو كظاهرة مرضية لأنواع من عدم التوازن الاجتماعي والسكاني بصفة أساسية . هذه هي الحالة التي تشكل أحد ردود الفعل المتميزة للسيكولوجية الاجتماعية التي أطلقنا عليها اسم النزعة الحربية الجمعية (Impulsion belliqueuse collective) .

إن هذه التقلبات هي التي تفسر كيف أن الصراعات القديمة بين الأمم المتجاورة أو المتنافسة يمكن أن تبقى هادئة وقتاً طويلاً ، ثم تنتظر في لحظات معينة من التاريخ وتصبح لا سبيل لاحتماها .

ويرى علم الحرب أن كل حرب تتضمن جانباً يقوم بالعدوان ، وهو ذلك الذي تكون نزعته الحربية هي الأقوى ، وهو الذي يرغب أكثر في الصراع وهو الذي يدع نفسه ينزلق إليه حتى بدون وعي بل وعن طيب خاطر ، وأن أشد النزعات الجمعية عمقاً هي غالباً تلك التي تتسر أكثر ما يمكن لأنها تبلغ أقصى قوتها لحجب شعورنا وخنق روح النقد لدينا .

ولكن الانعكاسات السيكولوجية لتغيرات البنية الديمغرافية ، مثل جميع الظواهر الاجتماعية ، تكون ذات قابلية عظيمة للتشكل . ذلك أن « زمن رد الفعل » لا يتغير فحسب ، ولكن رد الفعل ذاته يمكن أن يحرف إلى مخارج أخرى أو إلى غايات أخرى ، وهنا يكمن بالنسبة للبشرية الأمل في علاج أو إصلاح مصيرها ، لأنه إذا كان من غير الممكن إلغاء « وظيفة حيوية » ، فعلى الأقل يمكن الانحراف بها وأحياناً إيجاد بديل لها .

وفي إيجاز فإن الأسباب التي تثير الصراعات موجودة في كل عصر والمسألة تنحصر في معرفة لماذا يحدث الانفجار في لحظة معينة وليس في لحظة أخرى ، فإن تلك اللحظة هي التي يبدو لنا أن تحديدها يتم عن طريق التركيب الديمغرافي . وعندما تكون أمة ما قد عانت الحرب ، فإن أسوأ الاستفزازات لا تثيرها . أما « الحرب الوقائية » التي يوصي بها بعض المؤرخين لرجال السياسة من ذوي البصيرة ، هي لهذا السبب غير عملية

عندما لا تتوافق مع تركيب ديمغرافي ملائم . وعلى هذه الصورة كانت حال أمم أوروبا الغربية في لحظة إعادة تسليح إقليم الرين في ألمانيا أو اتفاقية ميونخ .

### ٣- الوظيفة الأولية للحرب :

لقد افترضت لهذا الموضوع فروضاً عديدة منذ عهد طويل وبعد برودون (Proudhon) رأى كنتون (Quinton) أن « الحرب تعمل على بقاء النوع عن طريق موت الأفراد » وأنها تعمل على انتخاب أفضلهم وأقواهم بنية . ويرد أنصار السلام قائلين ولكن الأمر يتعلق هنا « بانتخاب رجعي » لأن الحرب على العكس تعمل بصفة عامة على هلاك أقوى الرجال وأنصرهم شباباً . ومن ناحية أخرى إذا كانت الأنواع المختلفة في المملكة الحيوانية هي التي يلتهم بعضها البعض الآخر في أغلب الأحيان ، فإن الحرب تحدث فقط بين الناس ، وإذن فإننا لا نرى فيها شيئاً يتعلق ببقاء النوع واستمراره .

وإذا أردنا القول بأن الحرب تؤدي وظيفة بيولوجية ما ، فينبغي أن نبحث عنها في شيء آخر غير الانتخاب ، إذ أن هذه الوظيفة لا يمكن أن تكون سوى التدمير بذاته ، ووظيفة التدمير هذه هي أكثر ثباتاً وأكثر دواماً في المجال الديمغرافي عنها في ميدان الاقتصاد ، لأن تكاليف الحرب يمكن استعادتها سريعاً عن طريق الغنائم التي يحصل عليها المنتصر . ولكن الموق يبقون موق تماماً ، وسوف يستلزم الأمر فترة جيل على الأقل لتعويضهم ، إنها أقل فترة للاسترخاء الديمغرافي .

إن هذه الوظيفة البيولوجية التي تؤديها كل الحروب ، تبدو أنها الوظيفة الرئيسية ، إذ أن كل الوظائف الأخرى التي يمكن أن تؤديها تكون عرضة للاختفاء ، فالوظيفة الديمغرافية هي الوحيدة التي تبدو ثابتة بشكل مطلق ، والتي تمثل ارتباطاً يبلغ ١٠٠ ٪ لأنه ليس هناك صراع مسلح لا ينجم عنه

تدمير بشري ، وعلى هذا الوجه فإن النتيجة المباشرة لأي حرب هي التي تحدث في التراكيب الديمغرافية ، إنها تستأصل من الجماعة ( القبيلة أو المدينة أو الأمة أو الامبراطورية الخ . . . ) عدداً معيناً من الرجال عن طريق الابعاد والتدمير في آن واحد وباختصار فإن الحرب هي عبارة عن هجرة مسلحة .

إن تكيف السكان مع أنفسهم وفي الوقت نفسه مع بيئتهم الجغرافية والاقتصادية والسياسية ، لا يتم تبعاً لحركة مستمرة ، ومثل جميع الظواهر البيولوجية يكون هذا التكيف انقباضي وتوضحه منحنيات رجعية من ذات النمط الذي يدرس في البيولوجيا الرياضية ( أنظر أبحاث لوتكا Lotka وفولتيرا Volterrae وكوستيتزن Kostitzin ) ومن بين ظواهر التكيف هذه تبدو الحرب من أشدها شراسة ولكنها ليست الوحيدة ، إذ هناك نظم أخرى حقيقية ذات خاصية مدمرة بواسطتها تتحقق نتائج مماثلة للتوقف والاسترخاء الديمغرافي .

#### ٤ - النظم المدمرة :

إلى جانب عدد الموتى بأسباب طبيعية ينبغي أن نغزو مكاناً لعدد الموتى بسبب النظم أي الموت الذي يحرض عليه نظام ما ، وهو يتمثل سواء في التدمير عن طريق العنف أو بتأثير ظروف الحياة المفروضة على فئات خاصة من أعضاء الجماعة بحيث يختصر وجودهم بشدة ، ونذكر من هذه النظم :

##### أ - القتل المباشر للأطفال :-

يقول القرآن الكريم ﴿ لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ولكن في بلاد العرب قبل الإسلام لقي النبي محمد ﷺ عنا كثيراً في سبيل إلغاء وأد البنات ، وفي مجتمعات بدائية أخرى كان حديث الولادة من الأطفال الذكور هم الذين يضحي بهم عن طيب خاطر . ولقد كان قتل الأطفال في الحضارات الأوروبية القديمة نظاماً ثابتاً ومعترفاً به من جانب

الشرائع كحق مقدس لرب الأسرة . أما عن تعرض الأطفال حديثي الولادة للموت فقد كان على المسيحية أن تعمل على إيقاف الاقرار بهذا العمل أو التسامح فيه . وجدير بالذكر هنا المكان الذي يحتله الأطفال الرضع المعرضين للموت في القصص والأساطير من أمثال موسى عليه السلام وزوملي وسيروسي وأوديب الخ . الذين كانوا أطفالاً معرضين لخطر الموت .

## ب - قتل الأطفال بطريقة غير مباشرة :

إن الإهمال الذي يلقاه حديثو الولادة من الإناث يفسر المعدل الكبير من الموت في عدد من المجتمعات القديمة مثل الصين وبعض المجتمعات الشرقية . فالقسوة وسوء المعاملة وعدم العناية هي صور للقتل غير المباشر للأطفال ، وتزداد خطورته مع الفقر والتضخم السكاني ، وبالمثل عدم وجود تشريع لحماية الطفولة عند قيام الصناعة الكبيرة حيث كنا نرى أطفالاً في سن السابعة يعملون في المناجم . وكذلك حق الملكية للأب على نسله ، وهو حق كان يقره التشريع الروماني ولا يزال باقياً حيث أيامنا هذه في قطاع كيبز من المجتمع البشري . وقد كان إمداد تجارة الرقيق من الزوج في معظمها بواسطة الوالدين الذين كانوا يبيعون أولادهم .

وهناك صورة أخرى من القتل غير المباشر للأطفال تتمثل في اختبارات الاطلاع على الأسرار التي تصاحب عادة في الحضارات البدائية ، الانتقال من مرحلة الطفولة إلى الشباب « فترات صوم ، عمليات الوشم ، الضرب بالعصي أو الجلد الخ » وإنا لنجد بقايا من اختبارات الاطلاع على الأسرار هذه التي يفرضها الجنود القدماء على المستجدين منهم ، في كل النظم التي يطلق عليها عالم الاجتماع آمون Ammon « النظم الانتخابية » من امتحانات ومسابقات واختبارات وخدمة عسكرية والتي تنتهي بطريقة غير مباشرة إلى إنهاك قسم عريض من الشباب خصوصاً الأولاد وإخضاع نشاطهم وأحياناً إلى تدميرهم أو إضعافهم بدنياً ، وأخيراً عندما تحدث أزمات ومجاعات وأوبئة



الخ . . . فإن الصغار بصفة عامة هم الذين يصيهم الهلاك أكثر من غيرهم .

#### جـ - استئصال أعضاء التناسل :-

لعب هذا النظام دوراً هاماً جداً عبر التاريخ . ففي القرن الثامن عشر قال تافرنيه Tavernier أنه في خلال عام واحد تم إحصاء ٢٢ ألف خصي في مملكة جولدكوند ولم تكن هذه المملكة سوى إقليم من إمبراطورية المغول العظيمة - وكانت عملية استئصال عضو التذكير تصاحب غالباً استرقاق الأطفال أو خطفهم ، وكان لهذه العملية أيضاً عند بعض الشعوب سمة رمزية . فهناك رسوم مصرية تمثل بعض الكهنة يخلصون الغنائم من هذا النوع والتي أتى بها الجنود الظافرون .

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفصيلي لمختلف التفسيرات التي أراد البعض تقديمها لذلك العرف . ومع ذلك من المحتمل أن ليس هناك في هذا الشأن تفسير شامل مفيد في كل الحالات ، ولكن ممارسة عملية الإحصاء تدعو إليها ، تبعاً للعصور والمجتمعات ، معتقدات وأنظمة محددة تماماً وهي تطبيق منطقي لها . ولكن من وجهة النظر الديمغرافية لا يمكن اعتبار هذه التفسيرات سوى ظواهر مصاحبة إذ أنه مهما يكن الدافع للإحصاء تبقى النتيجة التي تتلخص في أن عدداً معيناً من الشبان قد أقصي عن عملية الانجاب . وعندما يكون الرقم كبيراً فإن ذلك ينعكس حتماً بطريقة أو بأخرى على معدل المواليد .

#### د - نظام الرهبنة Le Monachisme

ويؤدي نظام الرهبنة دون استئصال الأعضاء مع ذلك إلى النتيجة نفسها في إيقاف الزيادة في السكان وتلعب الرهبنة دوراً يختلف حسب المكان والعصر ، فهي تبلغ أحياناً غمواً هائلاً جداً كما في فترات معينة من العصر

الوسيط ، وفي اسبانيا في القرن السادس عشر ، وقبيل الثورة في فرنسا قدر عدد رجال الكهنوت بمائتي ألف شخص . ولكن عصر الرهبة العظيم قد انقضى منذ وقت طويل .

وفيا يتعلق باسبانيا مثلاً نجد أن قمة الرهبة تتوافق مع أعظم فترات الهجرة عندما كان سكان شبه الجزيرة يهاجرون إلى ارمبكتين . وتبدو الرهبة التي تنموغواً غير عادي كما في التبت ، أنها جزء من ردود الأفعال اللاشعورية التي يملها التوازن الديمغرافي الاقتصادي<sup>(١)</sup> .

#### هـ - الرق L'esclavage

يتميز الرق من وجهة النظر الديمغرافية بإخصاب ضعيف جداً ، ويمعدل هائل في الوفيات . وتشير الاحصائيات الحديثة النادرة التي تحت أيدينا ، عن وفيات الرقيق في جزر الانتيل في مستهل القرن التاسع عشر ، تشير إلى أنها بلغت خمسة أضعاف معدل الوفيات عند السكان السود المحررين ، ومع ذلك فإن الأمر يختص بعصر كانت فيه وسائل منع تجارة الرقيق قد أدت إلى ارتفاع هائل في ثمن الأرقاء مما نتج عنه تحسين معاملتهم . وفي أيامنا هذه تقوم الأعمال الشاقة بالدور المدمر نفسه ويزيد من خطورة هذه الأعمال الشاقة أن العامل لا قيمة له ، فلا يستطيع أن يأمل في أن يلقي أي اعتبار .

ويمكن أن نشبه الرق بظروف عمل معينة مثل العمل في الاحمال . ففي الصين حتى اليوم لا يزال يوجد الحمالين من البشر ، ومن النادر أن نجد بين الذين يجرون العجلات (Cooli-pousse) ( وكان يوجد منهم آلاف في المدن الصينية ) من يتجاوز سنهم خمسة وعشرين عاماً .

والجدير بالملاحظة أنه عندما بلغت الامبراطورية الصينية والرومانية إلى

(١) أنظر اشير بل Ch. Bell « صورة الدلاي لاما ، لندن ١٩٤٦ »

أقصى حدود توسعها ، واستطاعت أن تنعمان بأمن لا يمكن خدشه ، عكفت كلتاكما على التضحية بالأيدي العاملة من الرقيق . ويبدو أن هذه الأيدي العبدية هي التي عوضت آنذاك الخسائر الحربية في فترات الخطر والصراع .

## و- قانون الردع Le droit repressif

يضغط قانون الردع بثقل أكبر على الشبان إذ الواقع أن الاغراءات هي دائماً أشد عنفاً لدى الشبان وتدفعهم في الواقع إلى الجريمة وإلى التسكع الخ . . . . وتعودهم إلى الوقوع تحت طائلة قانون الردع .

يتميز النظام القديم في أوروبا بوجه عام ونظم البلاد القديمة مثل الصين باللجوء في أحوال كثيرة جداً لعقوبة الاعدام ، فالسرقات حتى التافهة كان جزاؤها عقوبة الشنق أو أنواع أخرى من التعذيب . ولقد كانت السجون في كل البلاد حتى القرن التاسع عشر أماكن للتككيل الحقيقي وحيث كان نزلاؤها نهباً مقسماً بين الموت جوعاً والأوبئة .

ولكن من كل هذه النظم المدمرة كانت الحرب بلا شك أعظمها ثراً لأنها تحقق بالجملة ما تقوم به الأنظمة الأخرى بالتجزئة .

ومع ذلك فإن التدرج الهرمي للأعمار يمثل الضابط الأكيد للحكم سواء على عدوانية دولة ما ، أو على القوى التي تضطرها للجوء إلى الأنظمة المدمرة الأخرى .

وأخيراً بالرغم من أن الهجرة ليست تنظيمياً مدمراً حقيقياً فإنها تلعب مع ذلك الدور نفسه . ويقدر عدد الأوروبيين الذين تركوا القارة القديمة فيما بين عامي ١٨٠٠ - ١٩١٤ بأربعين مليوناً . وهذا الخروج للشباب يفسر أن القرن التاسع عشر كان القرن الذي ساد فيه السلام نسبياً بين كل القرون . ويعتبر الأبعاد من جانبه هجرة قهرية وهو يؤدي في فترات معينة دوراً كبيراً في التاريخ الديمغرافي ونجد فعلاً مثلاً لذلك في حالة سيبيريا وأستراليا . أما عن خسائر الحرب فيه تعادل الهجرة إلى العالم الآخر .

## القتل المؤجل للأطفال :

كل شيء يسير كما لو أن هناك علاقة توازن وتعويض بين النظم المدمرة في مجلتها من ناحية والدور الديمغرافي للحرب من ناحية أخرى : إذ عندما تسبب وفاة الأطفال والمجاعات والبؤس الخ . . . ضحايا أقل نسبياً ، فإن الحروب بصفة عامة تسبب ضحايا أكثر . ويوضح تاريخ القرنين الأخيرين بصفة خاصة هذا الاتجاه بوجود علاقة عكسية .

لقد بدأت الزيادة السريعة للسكان في أوروبا مع استخدام التطعيم الجنري<sup>(١)</sup> ومع خطوات التقدم الأولى للطب . فقد تضاعف الجنس الأبيض إلى أربعة أضعاف منذ عام ١٨٠٠ بينما زادت الأجناس الأخرى بمقدار ضعفين فقط . وأنه لتوافق يثير الدهشة أن تقع حينذاك المذابح الكبرى بين البيض : حروب الثورة الفرنسية والامبراطورية وحرب الانفصال ، ثم الحروب الأهلية في روسيا وفي اسبانيا وذلك دون أن نذكر الحربين العظميين عام ١٩١٤ و عام ١٩٤٠ .

واليوم يبدو أن الزيادة في السكان تسير سيراً حثيثاً في آسيا ، ولذا يبدو لنا من المحتمل أن سكان هذه القارة ودولها سوف تزداد ميولهم للحرب ، اللهم إلا إذا يفضلوا ، بعد تحررهم من سيادة الأوروبيين ونفوذهم ، العودة إلى أنظمتهم المدمرة التقليدية وهو أمر سوف يقرره المستقبل . وقد لا يؤدي التضخم السكاني أو عدم التوازن الديمغرافي والاقتصادي بالضرورة إلى الحرب بل إنها تتجه ببساطة إلى العودة إلى الأنظمة المدمرة التي ليست الحرب إلا حالة خاصة منها ، وحتى وقتنا الحاضر نشاهد عبر التاريخ ، وتبعاً للحضارات والأمم والعصور ، تغلب اتجاهين رئيسيين دورياً : الأول يتلخص في الزيادة عن قصد في وفيات الأطفال عن طريق القتل أو الإهمال ، والثاني يتمثل في حماية الأطفال وتدليلهم ، ولكن لسوقهم فيما بعد إلى ميادين الحرب التي هي في حقيقتها قتل مؤجل للأطفال .

(١) نسبة إلى الطبيب الإنجليزي Jenner الذي اكتشف التطعيم الذي عاش في انحلترا من

## الفصل الخامس

### السمات التولوجية للحروب

#### ١ - الحرب والعيد :

يؤدي العيد دوراً أصيلاً في حياة كل الجماعات . وقد أكد دوركيم أن للعيد ، من وجهة نظر علم الاجتماع ، هدفاً يكمن في توثيق عرى التضامن في الجماعة وأنه يجدد بصفة دورية الصلات والتلاحم والاتفاق في الآراء بين أعضائها .

وفي كل الأنماط الحضارية يمثل العيد عدداً معيناً من السمات الثابتة :

أ - يشتمل العيد دائماً على اجتماع مادي لأعضاء الجماعة سواء تعلق الأمر بحفل الكوربوري Corrobori عند سكان استراليا الأصليين أو احتفال الاطلاع على الأسرار عند الهنود الحمر في ولاية الميسيسيبي أو حفل تام تام (Tam-Tam) في أفريقية أو الألعاب الأولمبية أو حفلات اليزيسي السرية (Mystères d'Eleusis) (في اليونان القديمة) أو الأعياد الشعبية (Karmesses) عند الغلامان أو حفلات الكرنفال .

ب - العيد طقساً للاتفاق والاسراف فيه : فالجماعة تستهلك وأحياناً تستنزف أيضاً خلال فرحها أو عند غضبها الأموال التي كانت قد ادخرتها في أناة في مبدأ الأمر ولكن يحدث ذلك دائماً في نوع من الهوس ( في معاقرة الحمر

والولائم والشرافة في تناول الطعام) . والعيد هو فرصة أيضاً للولائم من السخاء إذ تكثر فيه المبادلات والهدايا ويصحب الأعياد غالباً سوق أو معرض للمنتجات ، وهو فرصة لتجديد الملابس والحلي وتبادل الهدايا والدعوات إلى حفلات الترفيه والألعاب .

وتلقى دائماً التخريب المتسم بالتفاخر مرتبطاً من ناحية ما بالحرب . فالشعوب تفاخر بخسائرها ، وتشتمل طقوس النصر دائماً لدى أشد الشعوب اختلافاً على بعض التدمير الرمزي فقد كان حريق بريسبوليسي على وجه الاحتمال من عمل من أعمال التعبد أي أضحية زائدة قدمها الاسكندر لآلهة النصر . وفي روما كان يحدث بعد احتفالات النصر أن يخنق القادة الأعداء السجناء في سجن ما مرتين .

جـ - يكون العيد مصحوباً دائماً بإهدار بعض القواعد الأخلاقية إذ تحل بعض المحرمات ويسمح بأعمال ممنوعة عادة ، بل يوصى بها وتفرض أحياناً . وعند البدائيين تشتمل الأعياد العظيمة على خط من الأنغماس في المنكرات ويتاح فيه المحرمات الجنسية . وخلال الاحتفالات التي كانت تقام للآله ليبركالس Lupercales في روما كان الأرقاء هم الذين يأمرسون سادتهم ، وكان الجنود يسخرون بفظاظة من الامبراطور خلال احتفالات النصر .

د - والعيد يكون أيضاً طقساً للهوس الجمعي فالرقص والمشروبات والأغاني تثير حماساً جنونياً ، ومباهج تسودها الفوضى وأعمال غير مألوفة وألوان من الجنون والعنف .

هـ - ويشير العيد نوع من عدم الحساسية البدنية . فيحتمل الأفراد حينذاك ألوان من المتاعب وينصرفوا إلى أعمال من الاسراف غير عادية مما يؤدي إلى أن يتقبلوا الضربات أو قطع الأطراف . وفي أياها هذه نرى في المسيرة الكبرى للحجيج الفرسان إلى كربلاء الآلاف من المؤمنين يتتابعون في المهرجان تغطيهم الدماء من الجروح التي أحدثوها بأنفسهم . وفي الهند يلقي

المؤمنون مصرعهم تحت عجلات العربة الإلهية عند الحج في سيفا Civa .

و - ويصاحب العيد عند البدائين وفي جميع الحضارات طقوس للأضاحي وهي عبارة عن أضحيات من الحيوان وفي بعض الحضارات أضحيات بشرية وهي أضحيات جزئية أو رمزية أيضاً كما نرى في التمثيليات المقدسة التي فيها يقتل الممثلون فعلاً إما بأشخاصهم وإما باستبدالهم ببعض الأرقاء أو بعض المحكوم عليهم بالقتل .

وليس هناك من سمة من هذه السمات إلا ونجدها في الحرب ، بل يمكن القول أن الحرب هي العيد الأسمى وهي الانغماس المقدس الكبير في المأكل والمنكر بالمعنى السسيولوجي لهذه الكلمة ، إنها الاتلاف للذات دون أية مراعاة أو تحفظ ، أما الأشكال الأخرى للعيد فهي ليست سوى محاكاة باهتة لها .

وجدير بنا أن ننظر في بعض هذه المظاهر الأساسية التي تتقارب بها الحرب من العيد .

### السمة الجمالية للحرب :

تتضح هذه السمة فيما يتخذه المحارب من زينة ، إذ أن أجمل الحلى التي أبدعها الإنسان في جميع الحضارات ، باستثناء الخمسين عاماً الأخيرة ، قد كانت لأجل زينة المحارب ، وأن المعادن النفيسة والخوذات المزخرفة والريش والخوذات البراقة والأقمشة ذات الألوان الزاهية والنقوش والتطعيم بالأحجار الكريمة الخ . . . كل ذلك من نصيب المحاربين المألوف ، وليس عليك إلا زيارة متحف للأسلحة والبذات العسكرية أو تقلب صفحات محافظ الصور في نفس النوع لتكون على دراية بهذه النقطة .

وإننا نرى دائماً السكان الأكثر ميلاً للحرب من بين البدائين ولدى الحضارات المندثرة ، يمزجزن الحرب برقصات جمعية ، وعندما تتقرر

الحملات الحربية عند السود ، فإنها تكون في جميع الظروف تقريباً مسبقة بالرقص . وهذا هو الحال عند الهنود الحمر سواء عند أولئك من سكان أمريكا الشمالية أو الهنود وسكان الملايو . . . وقد مارس الاغريق القدماء الرقصات الحربية بشكل طقوسي وعلى الخصوص رقصة البيريك (Pyrrhique) التي كانت تمارس بالأسلحة في مناسبات معينة .

يضاف إلى كل هذا الميل إلى المشاهد الحربية في استعراضات وطواير سير الجنود والمواكب والانطلاق بالمشاعل الخ . . . ولا تخلو المعارك ذاتها من مظهر جمالي يقارب بينها وبين المشاهد الترفيهية . فالمعركة الحربية عبارة عن استعراض راقص ولكنه خطر ، ولأجل أن تقتنع بكل هذا ما علينا إلا مشاهدة أعمال النحت والرسم التي تمثل المعارك ، وكذلك النقوش الآشورية وأفاريز المعابد الاغريقية وأيضاً اللوحات الفنية لفان در مولن (Vander Meulen) . أو تلك التي رسمها البارون جرو (Baron Gros) .

### السمة المسلية للحرب :

تنتزع الحرب الانسان من حياته اليومية وتضعه في جو مادي ونفساني غير عادي . فالحرب قبل كل شيء عبارة عن مصدر للانفعالات لا مثيل له .

وحتى في العالم الحديث تمثل الحرب - على الأقل في بدايتها - سمة مسلية لا شك فيها . في مبدأ الأمر يمتلك الفرد الذي استدعي للخدمة العسكرية ، الشعور بأنه في إجازة حقيقية ، فهو قد ينتزع انتزاعاً من رتابة الحياة اليومية ومن عبودية الحياة الأسرية وفي العمل ، ولم يعد يفكر فيها هو مطالب به من ضرائب وفي إيجار مسكنه . وفي التنظيمات الحالية لا يتحمل أي شخص يكون عاملاً أو موظفاً أو مستخدماً ، بفضل نظام علمي دقيق للمرتبات والتعويضات ، إلا ضرر مادي ضئيل بسبب استدعائه في الجيش .

على هذا الوجه تقطع الحرب رتابة الحياة في مجتمع آلي . ويتفق البعض



ومنهم الدوق هكسلي وعلى الأخص لويس ممفورد Louis Mumford<sup>(١)</sup> على أنه لأجل تلك الأسباب السيكولوجية كلما صار مجتمعنا آلياً تسيطر عليه التقنية ، فسوف تنمو فيه الروح الحربية . وقد قرر دوركيم في كتابه عن الانتحار وكذلك هالفاكس من بعد ، أنه في وقت الحروب تنخفض معدل حالات الانتحار عند غير المحاربين بمقدار الثلثين في المتوسط عنها في زمن السلم .

وتبعاً لما حدث في ألمانيا يمكن أن نرى أن هذا الدافع يكون قوياً بصفة خاصة في البلاد التي تخضع لنظام الحكم المطلق. فهذا النظام إذ يفرض وحدة الرأي ويلغي النضال السياسي والمجادلات الدينية والفلسفية والأدبية إذ يرغم المواطنين على عمل إجباري ونظام بوليسي كثيب ، فإنه بذلك يقضي على كل تطلع وكل هوى في الحياة ، وعن وعي أو بدون وعي لم يعد المواطنون يؤملون في شيء لأجل الترفيه حقاً عن أنفسهم ولأجل كسر حلقة الرتابة السيكولوجية ولادخال جانب التطلع في مصائرهم سوى في الحرب .

وتكتسي فكرة العرض العسكرية والغارة مظهر الرحلة الخطرة والخروج للقمص في آن واحد وهو أمر أشد إثارة بكثير مما لدى الحيوانات حتى الأشد شراسة .

### الحرب وفكرة المقدس :

إن التحول في العقليات هو أول النتائج التي تخلقها حالة الحرب بل إنها من أعظمها إثارة للدهشة إذ تتغير صور القهر الاجتماعي وتتحول موضوعات المقدس وغير المقدس ، وتخضع حدودها لانتقال متلاحق وهي تؤتمر مبدئياً على قتل الانسان وهو أمر محرم بصفة عامة في وقت السلم ولكنه ينقلب فجأة مسموحاً به بل يحرض عليه تجاه العدو ، وتحل محرمات أخرى

(١) كتابه Culture of Cities نيويورك ١٩٣٨ .

التي تقضي بحماية الأموال وسلامة الأبدان ، ويصبح حلاً للنهب والسلب والاستيلاء على أموال العدو في صورها المختلفة ، وكذلك تسمح غالباً علانية أو سراً باختطاف الأولاد وعلى الخصوص اغتصاب النساء أيضاً .

إن التحول في طبيعة القيم الذي كان يتمناه نيتشه ، يتم بانتظام وعلى الفور ، فكل حرب تدخلنا فور إعلانها في عالم أخلاقي جديد ، إنه الوجه الآخر للوهم المشترك الذي هو خاصية الحياة الاجتماعية في فورانها .

المانوية ( الزندقة ) السيكلولوجية :

إذا كانت فكرة الصديق والعدو تنوع تنوعاً دقيقاً في زمن السلم فإن لفظ « العدو » يأخذ في زمن الحرب المعنى البدائي لكلمة «hortes» أن الصداقة أو العداوة التي تمثل في الحياة كثيراً من المتغيرات والتناقضات ، لم تعد تكتسي سوى صورتها الأكثر جدة ، تلك التي تؤدي لأول وهلة إلى الحل الأخير . ومن ثم ينبغي أن يقتل الإنسان عدوه ويجب أن يضحي بنفسه تضحية كاملة لأجل أصدقائه ، إذ لم يعد هناك حل وسط .

وقد حلل جابريل تارد G. Tarde على وجه عام هذا الموقف في نظريته عن « المبارزة المنطقية » عندما أشار إلى أنه عندما يكون هنالك عدة قضايا أو عدة اتجاهات متباينة ، يستمر هذا التنوع طالما كانت العلاقات سلمية ، ولكن عندما ينفجر القتال ، فلن يكون هناك إلا معسكرين ، وعلى هذا الوجه يؤدي النزاع إلى أبعد تبسيط منطقي للتناقضات ، وهذا التبسيط يحولها إلى براهين ذات حدين .

وعندما تشن جماعة ما الحرب بسبب نزاع يتعلق بالكرامة مثلاً فإن النزاع لا يمكن أن يتحدد بنقطة الاحتكاك الأصلية بل إنه يمتد إلى كل الميادين ولا يلبث أن يصبح حرباً اقتصادية وسياسية وتقنية وعقلية في آن واحد . وهكذا تنتهي الأنشطة والمعتقدات بالاستقطاب حول بعض موضوعات ذات مبدئين متنازعين ، فالحرب تفرض عقلية مانوية mentalité manichéiste .

## ٢ - طقوس الحرب وطقوس الأضاحي :

هناك فكرة معقولة لدى جميع العقليات البدائية وتتلخص في أن الآلهة تطالب بانتزاع الحياة من بعض الكائنات الحية ، تكريماً لها . ولكن ما هي الروابط التي تربط الحرب بطقوس الأضاحي ؟ .

في حالات معينة مثلاً عند قبائل الازتك أو عند سكان الاوقيانوسية (L'oceanic) أن ما يبرر قيام الحرب في الواقع هو الرغبة في تقديم الضحايا التي تطالب بها الآلهة ، وفي حالات أخرى كما هو الحال عند الآشوريين وفي معظم الحروب الدينية أو الأيديولوجية ترتبط الحرب بطريق غير مباشر بالتضحية ، وتبدأ بالفكرة القائلة أن الحرب هي كلها نوع من التضحية بالجملة وهي تبعاً لذلك مستحبة لدى الآلهة . وتعتبر قصص التوراة والكتابات الآشورية وبعض آيات القرآن الكريم عن ذلك التعبير .

ومن العجيب أنه بينما تتجه عبادة الموت في الأديان الحديثة إلى التضاؤل ، فإننا نراها تولد من جديد وعلى وجه الدقة بمناسبة الحرب وهي تمثل إحداث الركائز السيكولوجية ومن المقرر في أيامنا هذه أن معظم الشعوب تميل تحت تأثير النزعة القومية إلى تبني أنواع من الديانات القومية التي تركز في عبادة المحاربين الذين ماتوا في الحرب ، خارجية كانت أو أهلية ، وكل واحد يجعل من نفسه الضحية وعلى هذا الوجه ، كما يعلن نيتشه ، تتجه عبادة الأبطال الذين سقطوا في ميدان الوغى والسلاح في أيديهم ، إلى الإحلال محل عبادة القديسين .

ومن وجهة النظر السيكولوجية هناك مجال للبحث عما إذا كان الخط المتغير لطقوس الموت وبوجه خاص التحريض على الموت بصورة عنيفة أو القتل ، متناسباً مع متغيرات أخرى ، ومن المحتمل بالأخص أن تكون طريقة معاملة المغلوب مرتبطة بجملة شروط ديمغرافية اقتصادية ، وهكذا يلاحظ بصفة عامة أن شعوب القنص تقتل أسراهم لأنه يلزمهم أراضي خلاء واسعة

تستطيع أن تتوالد فيها حيوانات القنص ، وعلى العكس تقوم مجتمعات الزراعة والصناع التي تمارس تقسيم العمل والتي هي في حاجة ماسة للأيدي العاملة باستبدال ذبح المغلوبين باسترقاقهم أو بالعمل في خدمتهم ، ونفس فعالية الآلية الحالية الانتساع المتفاوت لمذابح الحروب الحديثة ، إذ لم تعد هناك في أيامنا فائدة اقتصادية في صيانة الرأسمال البشري الذي هو دائماً يزيد عن الحاجة .

وأخيراً من حيث أن أعلى صور السلطة تتمثل في حق القتل ، فإننا نرى غالباً أن قياس قيمة قضية ما يكون بعدد حالات الموت العنيف التي أحدثتها ، ومن المقرر أن كل أيديولوجية قدمت تضحيات وشهداء ، تكتسب قيمة في ذاتها . ولا يهم ( ونحن مضطرون إذا ما أردنا أن نكون أمناء وموضوعيين أن نقرر ذلك ) أن تبدو كل القضايا ، أبلها مثل أخبثها ، وأسخنها مثل أقربها للصواب ، جديرة بأعمال بطولية في بذل النفس . وقد أعلن تروتسكي في أحد خطبه وهو يرد على كوتسكي الذي كان يطالب بحرية الصحافة ، بقوله : « إن الآراء التي يراق باسمها الدم هي بهذا الواقع آراء مجردة ، وأنه لا يمكن معالجتها في الوقت نفسه كحقائق نسبية يمكن مواجهتها في أمان بحقائق أخرى » . إن هذا هو نفس النمط للتدليل على عبادة الموت : إن حالات الخسائر تعتبر خير ضابط للحقيقة الايديولوجية .

## الفصل السادس

# السمات السلوكية للحروب

### ١ - النزعات الحربية والعدوان :

تفعل الجماعات البشرية في لحظات معينة بدفعات من نزعات حربية وتنطوي هذه النزعات ، كما رأينا ، على حالة نفسية جمعية تدفع الغالبية من أعضاء الجماعة إلى الرغبة في الحرب أو على الأقل قبول فكرتها .

ومن خصائص المجتمعات البشرية أنها تعيش دائماً في توقع الحرب ، ولكن ذلك لا يعني أنها ترغب فيها في جميع الأوقات ، إذ من الممكن أن تكون جماعة ذات ميول حربية بالأمس ، تفضل اليوم السلم ولا عليها أن تجد فيما بعد عدوانيتها وقد أشبعت مؤقتاً .

من خلال أية علامات وأية براهين يتولد في ضمير جماعة من الناس القناعة بأن حرباً قد فرضت عليها في لحظة ما ؟ كيف وفي أية ظروف تنشأ لدى الحاكمين ولدى الشعوب الرغبة في الحرب ؟ .

هناك سلسلة من الأبحاث تمت في الولايات المتحدة يمكن أن تستخدم كنقطة انطلاق لهذا البحث ، وتوضح هذه الأبحاث العلاقات الوثيقة التي توجد بين العدوانية والحرمان ، ذلك أن الشعور بالحرمان يتولد عندما تقف عقبة ما بيننا وبين إشباع رغبة أو بلوغ هدف . ومن المؤكد أن السخط الذي

يشير الحرمان وعلى هذا الوجه حالة الموظف الذي لقي عنتاً من رئيسه المباشر فينفس عن ضيقه بضرب زوجته وأطفاله .

وقد استطاع م.ك. ليفن (M.K. Levin) وتلاميذه على هذا الوجه تعيين ارتباط أحصائي حقيقي بين تقلبات أسعار القطن وعدد المحاكمات الجماهيرية الفورية ، ويقول آخر فإن الحرمان الاقتصادي يزيد من العدوانية التي تنصب على الجانب الأضعف . وفي الحياة السياسية تثير العدوانية الغضب تجاه الطبقات الحاكمة أو الادارة أو الحزب الحاكم ، ثم أن الأحوال الاقتصادية السيئة وانخفاض مستويات المعيشة والبطالة الخ . . . تؤدي إلى نجاح المعارضة . وقد بينت الاحصاءات التي أجريت في الغرب الأوسط الأمريكي أنه يحدث في فترات الجفاف أن ينهزم الحزب السياسي الحاكم بوجه عام في الانتخابات .

ومع ذلك من المناسب أن نلاحظ أن ردود الفعل للحرمان يمكن أن تكتسب تبعاً للظروف صورة يمكن أن نسميها منحطة . وحينئذ يحل الادعان محل العدوان ، ولكن يلاحظ آنئذ تأخر عقلي عند الأفراد الذين يرجعون إلى حالة في حياة عقلية أكثر بدائية وانحطاطاً .

وإذا ما نظرنا إلى الفرد منعزلاً فليس هناك من شك في أن العنف يكون مرتبطاً بالقوة البدنية كما يقول المثل الروماني « إن الفتى القوي يصبح رجلاً شريراً » ومن الملاحظ عند جميع الحيوانات ومنها الانسان ، تكون الذكور الصغيرة بصفة خاصة طائشة ومباله للقتال . ومع ذلك فإن الأمور تتخذ مظهراً مغايراً عند فحص ردود أفعال العدوان الجمعي : حالما يتواجد الانسان في جماعة تصبح ردود الأفعال العدوانية أكثر تنظيمياً ، وتبدو أنها تشارك في آلية غير واعية ، ويمكن أن يستخلص من ذلك منطقياً أن هذا الفعل الآلي يكون أكثر وضوحاً بقدر ما تكون الجماعة أكبر عدداً ، ويجدر بالاشارة إلى ظاهرة اجتماعية قد أثارت بصفة خاصة الدهشة لدى رواد علم الاجتماع وهي

عدوانية الجماهير ( التي تتمثل في النهب والمحاكمات الفورية والتدمير من كل نوع وفيها نرى الجماهير وقد تملكها الغضب تهشم وتحرب وتذبح الخ . . . ) ومع ذلك فإن الدراسة الواعية توضح أن الجماهير بطبيعتها أكثر سلبية وخضوعاً وتوافقاً ، وأنها عندما يبدو عليها العنف ، فإن ذلك يكون بوجه عام نتيجة تخريض سابق أو نتيجة موقف اتفاقي ، وعلى هذا الوجه تكون الاحتفالات الوجدية أو المآدب التي تتسم بالاسراف في الشراب والأكل مثل حفلات الكوروبوري (Corroboris) أو التتمام (Tam-Tam) عند البدائيين وفيها يعرف المشتركون مقدماً أنهم مقدمون على حالات من الرعب .

إن ما يميز النزعة الحربية الجمعية بمقابلتها بعدوانية الفرد أو الجماعة الصغيرة هو قبل كل شيء عمقها ودوامها ، ويمكن القول أنها حالة نفسية بدلاً من كونها عملاً عفيفاً آنياً ، إنها شعور بضرورة قيام فترة من الصراع والتدمير ، أو هي القناعة التي ليست سوى مجرد التسليم بكارثة نرى ألا مفر منها . وأما عن فكرة الحرمان عندما يتعلق الأمر بنزعات حربية ، فإنها تكتسب صوراً غير متوقعة تبعاً لمعتقدات الجماعة ، إذ يمكن لأمة بأكملها أن ترى نفسها في حرمان لأنه يتعقبها سانت جرال (Saint Graal)<sup>(١)</sup> أو أنها تريد أن تحتل الأراضي المقدسة ، ويمكن أيضاً أن هذه الأمة لم تعد تستطيع أن تتسامح بأن يكون لجيرانها نظماً ومعتقدات تختلف عن نظمها ومعتقداتها .

إن هذا التنوع للدوافع التي يمكن أن تغذي العدوانية الجمعية هو الذي يحملنا على الاعتقاد بأنها ليست سوى ذرائع أو بدعة أكثر هي علل اتفاقية . وهذا هو السبب الذي من أجله يبدو لنا هذا الدافع في أغلب الأحيان خادعاً ، إنه عبارة عن تلاعب بالذات ، وإذن ينبغي أن نبحت عما إذا لم يكن لهذه العدوانية أساس أشد قوة وأكثر ثباتاً في التركيب الأدنى للمجتمع .

(١) Saint Graal سانت جرال : بناء من الزمرد الذي كان يستخدمه السيد المسيح للعشاء المقدس .

## التحليل النفسي للنزعات الحربية :

لقد حاول البعض بشيء من النجاح أن يربط النزعة الحربية بمركبات هي أساس منهج التحليل النفسي ، ومن بين هذه المركبات مركب الفشل ومركب الشعور بالذنب والاحساس بالنقص في جميع صورها .

إن الشعور بالفشل يرتبط غالباً بعقدة الاحساس بالذنب طبيعياً كان أو ميتافيزيقياً ، وهو يؤدي إلى تشخيص الفشل وخيبة الأمل والكوارث ذلك أننا نحاول أن نلقي على الآخرين مسئولية حادث أنزل بنا ضرراً ، ونريد أن نجعل علته الحقيقية ، ومن ناحية أخرى فإن الشعور بالذات الخاطئة يجعلنا نتوقع جزاء من القدر وأن نتقبله في غموض . . إذا لم نتطلع إلى حلول مصيبته ، وفي حالات أخرى تتجه عقدة الشعور بالذنب إلى التسامي فتتحول إلى بطولة فيتفانى الشخص في سبيل من يحيطون به أو في تأليف علمي أو أدبي أو في سبيل وطنه الخ . . . ولكن هذه البطولة ذاتها تبقى غالباً ممتزجة بعناصر مبهمه ترجى إلى نشأتها ، فالبطل يصبو إلى التضحية ولكن لكي يستحق زيادة في الجزاء ، ومن الممكن أن تتجه إلى جرائم جديدة : « مثلاً يمكن لبطل الحرب أن يكون له نفس مزدوجة : نفس الضحية ونفس القاتل ، إنه شهيد يباشر القتل ، فيأخذ نفسه في عقله الباطن بالتضحية والجريمة في آن واحد ، إذ أن الجريمة تعطي تبرير أكبر للتضحية »<sup>(١)</sup> .

أما عن الشعور بالنقص فيمكن أن يكون له مصادر عديدة ، وقد قام أدلر وبراكفلد (Adler et O. Brachfeld) بتحليل هذه المصادر تحليلاً يثير الإعجاب ، ويتلخص أثرها الأساسي في معظم الحالات أنها تثير رغبة ملحة للتعويض . فنحن نحاول ، نتيجة لكبريائنا ، أن نتعزى عن نقائصنا بممارسة مزايا في تناول يدنا . فالشعب الذي يرى نفسه أقل تحضراً أو أقل ثراء من جيرانه ، يرد على ذلك مثلاً بأن ينمي قوته الشرسة تعويضاً عن ذلك .

---

(١) انظر كتاب « المجرم وقضاته » لالكسندر وستوب (Alexander et Stranh)



ويمكن للزرعة للحرية أحياناً أن نجد لها أساساً أيضاً في الاحساس بالقلق الذي يسود عالمنا المعاصر ، ومن الممكن أن يقرر الأفراد إلى تفضيل واقع الكارثة على العيش في فزع دائم وهذا ما يمكن أن نطلق عليه عقدة داموفليس<sup>(١)</sup> .

وقد حاولنا في تأليف آخر<sup>(٢)</sup> إيضاح أن كل جيل يجد مصدراً لانتباهاته السيكولوجية الرئيسية في العقد التي تنجم عن الظواهر الاجتماعية والتاريخية التي أثرت تأثيراً عميقاً في طفولته ، وعلى هذا الوجه يتميز كل جيل صاعد بالأحداث التي ترتبط مع سن البلوغ لأبائهم أو سن نضجهم ، وعلى هذا الوجه أيضاً تتهاى ردود الفعل العاطفية التي تتولد من العقد التي عملت على تنميتها البلبلة الناجمة عن الأحداث التي عاشتها في الطفولة ، وحيث أن الحرب من بين القلاقل الاجتماعية هي بوجه خاص غنية ببواعث الاضطراب ولكنها تكون أيضاً الحل المفجع والاختياري في آن واحد الذي تتجه نحوه أشد عقدنا الجمعية كثافة .

## ٢ - أنواع السلوك عند المحاربين :

من خصائص الحرب أنها تدخلنا على التوالي عالماً سيكولوجياً مختلفاً تنقلب فيه القيم رأساً على عقب وتتغير العقلية تغيراً ثورياً ، فأولئك الذين يعارضون عقوبة الموت ويصدمهم تنفيذ حكم الاعدام في أعنى المجرمين ، يرون طبيعياً أن يبعثوا إلى المجزرة الملايين من الشباب الأبرياء ، وأن المقتصرين الذي يثير سخطهم أقل تبذير ليجدون طبيعياً تخريب مدناً بأكملها وإتلاف المليارات بدون أي إنتاج ، وتتخذ العقلية المعتادة على النقد والحرية على الفور موقف الطاعة السلبية والقدرية والاذعان لأسوأ الأمور . . . الخ ، ويتبدل عالم العلاقات الاجتماعية ويبدو لنا في نظرة

(١) Damoclès .

(٢) انظر كتابنا « الاختراع » ص ٤٦٧ وما بعدها .

تختلف اختلافاً تاماً عن نظرتة في فترة السلام .

وبما أننا سوف نفرق بين سيكولوجية المتصربين وسيكولوجية المنهزمين ،  
فينبغي لنا أن نميز مبدئياً سيكولوجية المعتدين عن تلك الخاصة بالذين وقع  
عليهم الاعتداء ، وينبغي أن نضيف أن هذا التمييز لا يكون في غالب  
الأحيان لأن فن رجال السياسة أو المؤرخين في أعلى درجة يكمن في تغيير  
الخرائط الجغرافية وإضفاء صورة الدفاع الشرعي على حروب الاعتداء ،  
ولكن يبدو لنا أنه من الممكن أن نتلمس أن النية في القتال أو الهجوم لدى  
المعسكرين تكون دائماً أقوى في جانب منها في الجانب الآخر .

قد يكون المحارب مجنداً أو مرتزقاً أو متطوعاً أو أخيراً متعصماً ،  
والسيكولوجية السائدة لدى المجند هي الاذعان (الذي قد يكون مصحوباً أو  
غير مصحوب بالعزم والشجاعة والسخط الخ . . . ) أما المحارب من المرتزقة  
الذي يجعل الحرب مهنته ، فإنه يرغب في ممارستها بأكبر قدر من الكسب  
وبأقل ما يمكن من المخاطر ، والحروب التي تتواجه فيها جيوش مهنية هي  
تلك التي تحدث فيها أقل الضحايا ، على الأقل من الجنود ، والمثل الذي  
يوضح خير توضيح هذا الاتجاه هو قادة المرتزقة في عصر النهضة في إيطاليا  
(Condottiori) أو جيوش « سادة الحرب » المحدثين في الصين الذين لم تكن  
حملاتهم الحرية تتكلف أموالاً أو قتلى إلا لدى السكان المدنيين الذين اتفقوا  
على نهبهم والحصول على ديات عنهم أو ردهم إلى رقيق الخ . . . أما حالة  
المتطوع فهي أكثر تعقيداً ، إذ لا شك أن الحرب لديه تمثل بلا جدال جاذبية  
فهو يقبل المشاركة فيها عن طيب خاطر ، ولكن الحرب ليست غاية في ذاتها  
فالمتطوع يدخل في نزاع ما للدفاع عن قضية يؤمن بعادتها ، والنمط  
الصحيح للمتطوع هو ذلك الذي يشترك في نزاع معين ثم يعود إلى ذويه عند  
انتهاء الحرب يغمره الاحساس بأنه أدى واجبه .

ومن وجهة النظر العقلية فإن الجندي يتخلص من أعباء التردد

والقلق ، ذلك أن واجبة واضح دائماً ، يقول الفريد دي فيني « هناك حيث توجد كتيبي ، يكون واجبي » ، وعلاوة على ذلك يكون لديه الشعور بأنه يمارس مهنة نبيلة ، وهو دائماً يحاط بالتقدير من مواطنيه وأحياناً بإعجابهم وعندما يكون في بلد عدو يكون محاطاً بخوف مشوب بالاحترام من السكان ، وأخيراً فإن الجندي الشاب يمثل أعلى درجات الجاذبية الجنسية لدى النساء .

### ٣ - المحاربون في التسلسل الاجتماعي :

كان حمل السلاح امتيازاً للطبقات التي تحكم والتي إليها ينتمي دائماً الجنود كثيراً أو قليلاً ، إذ أنهم ليسوا امتداداً لها . وفي رأي سيمون دي بوفوار وأوليفر براكفلد (O. Brackfeld) أن أحد الأسباب الرئيسية لعقدة النقص عند المرأة يكمن في أنها لا تشارك بصورة تقليدية في الحرب فيقول براكفلد : « لدى البشر لا يمنح التفوق للجنس الذي يلد ، بل للجنس الذي يقتل » .

إن مواقف البطولة التي لا داع لها والتي باتت نادرة منذ عهد الفرسان الجواله (Chevaliers Errants)<sup>(١)</sup> عرفت انبعاثاً من بدء القرن التاسع عشر مع الحركة الرومانسية وقد نشأت تلك البطولة من ميل للمخاطرة وازدراء للحياة المنظمة المترنة في آن واحد ، فبالنسبة للشباب ذي الروح المعذبة الذي اتفقت عليه ألوان القلق الميتافيزيقي ، يبدو له أن اختيار المخاطرة الحربية هو السبيل للخلاص من هذه المسائل الأليمة ، مما يؤدي بمن يسلك هذا الطريق إلى الاعتقاد بأنه أداة في يد القدر ، ويضاف إلى ذلك نوع من النشوة التاريخية يفسرها كل إنسان على طريقته بالطبع ولأجل أعظم مجد شخصي له . وأن الاتجاهات الرومانسية ، كما نجدتها موضحة لدى المولعين بالبطولة أمثال شاتوبريان وبيرون ودانزيو وبارس تتيح للمؤمنين بها إلى الاقتناع بالالهام أي بتحليل أخير إلى اعتبار نزعاتهم أموراً إلهية ، مفروضة مباشرة من

(١) Chevaliers Errants وهم الفرسان الذين يجوبون البلاد في العصور الوسطى لرفع الظلم عن المظلومين .

العناية الإلهية . ولكن كل نزعاتنا هذه هي النزعة الحربية لأنها نزعة جمعية .  
وأن مثل هذه العقلية تلائم إذن وإلى أقصى حد قيام الحروب .

وللحروب مظهر أخلاقي لا جدال فيه ، ولا يمكن لأشد الناس إيماناً  
بالسلم أن ينكر أن الحرب تثير فضائل عظيمة ونبيلة من الشجاعة والتفاني  
والاخلاص والأمانة والصداقة بين المحاربين . وقد كانت الانسانية في جميع  
صورها الحضارية على وعي دائم بهذه الفضائل الخلقية للحرب وأولتها تقديراً  
عظيماً جداً .

وفي المجتمعات التي تقوم على نظام الطوائف أو تقلب فيها أنماط  
التسلسل الاجتماعي الذي يفرض إلى نظام الطوائف ، تعتبر الفضائل الحربية  
بوجه خاص كأنها حق الجماعات من الجند بثوراتها الأبناء عن الآباء ،  
وتمارس هذه الجماعات بعناية فائقة عاطفة الشرف والرجولة والجسارة ،  
ويسلك أعضاؤها سلوكاً مبنياً على أنهم الأمناء على تلك الفضائل وفي  
الميتولوجيا الهندية تأتي طائفة المحاربين مباشرة بعد طائفة البراهما ، وبوجه عام  
يعين الأمراء والملوك من بين أعضائها ، وأن تبرير قيام البناء الاقطاعي ذاته  
عبارة عن تملك عسكري إذ كانت الأراضي تقسم بين أسر المحاربين ليتاح  
ضمان الخدمة العسكرية للملك أو قيام الفلاحين بالدفاع المحلي . وحتى  
الشعوب المعروفة بصفة خاصة بنشاطها التجاري ، تبجل الشجاعة  
العسكرية ، وغالباً ما ترى في هذا الشأن تنويجاً للنجاح التجاري . ففي  
جمهورية البندقية كان أبناء الطبقة الارستقراطية التجارية يعملون غالباً ضباطاً  
في جيوش الجمهورية وفي أساطيلها ، وكذلك في الجمهوريات والملوكيات ذات  
النمط الديمقراطي رأينا الطبقة البرجوازية في عهد لوي فيليب وعهد فيكتور  
ايمانول وفي الجمهورية الثالثة وفي ألمانيا على عهد غليوم ، راغبة كل الرغبة  
في إلحاق أبنائها بالرتب العليا في الجيش .

إلى أي حد يكون هذا التبجيل للفضائل الحربية المختصة بكل

الارستقراطيات والتي فيها يتأثر الشباب من جميع الطبقات ، إلى أي حد يكون سبباً من أسباب الحرب ؟ يمكن أن ندرك تماماً أن الارستقراطيات الحربية مع ذلك ليس لديها ميول قتالية ، ويمكنها تماماً أن تبقى جامدة في كبريائها راضية عن نفسها ، معتبرة أنها قد قدمت البراهين على أنها كسبت في ماضيها قدراً كافياً من الأجاد كيلا يكون بها حاجة للبحث عن أجاد جديدة ، وعلى هذه الصورة انتهى الاسبارطيون بأن تحولوا إلى أمة مسالمة .

إن طبقة المحاربين المنتصرين الذين يتمتعون بثمرة انتصاراتهم ووضعهم كمستهلكين مرموقين حيث أهلتهم انتصاراتهم ، يمكن أن يكونوا على قدر كبير من الرقة ، ولكن الحياة العسكرية وعلى الخصوص بالنسبة للطبقات الدنيا من التسلسل الاجتماعي ، تتألف بالأحرى من أنواع من القهر وألوان من الشراسة ، وأن قسوة التعامل في حياة المعسكر وأنواع السخرة ، والتدريب على القسوة وعدم المبالاة بالآلام الآخرين هي الأساس في تدريب المجندين الجدد ، وقد أمكن القول أن هبوط مستوى العادات السلوكية الطيبة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد بدأ مع تقرير نظام التجنيد وانتشار الخدمة العسكرية . فقد أعلن ريتان<sup>(١)</sup> : « : » أن كل امرئ مر بالشكنة هو على العموم مفقود من ناحية الرقة واللطف .

إن الحياة العسكرية تنمي قبل كل شيء روح الشراسة وتولد مع الاحساس بالخطر ، الرغبة في التمتع في سرعة وبدون مراعاة لأي شيء وأي شخص ، بالمزايا المتاحة « فإن الزمن غير موجود بالنسبة لمن يحيا من لحظة إلى لحظة أو من معركة إلى معركة ، وتبدو تعويضات المستقبل أشياء خيالية ، ولذة اللحظة الحاضرة هي وحدها الشيء الثابت ، ولأجل أن نستعمل هنا تعبيراً مناسباً فإن كل متعة هي نصر على العدو ، ومن الذي لا يشعر أن لعبة اللذة والموت تلك تؤدي إلى الفساد ؟ »<sup>(٢)</sup> .

(١) ريتان مؤرخ وكاتب فرنسي من القرن التاسع عشر

(٢) من كتاب « عن روح الفتح » لبنجامن كونستان « De l'esprit de Conquête » Benjamin Constant وهو كاتب وسياسي فرنسي من كتاب القرن التاسع عشر .

التاريخ يبين لنا أيضاً أن رؤساء الدول الميالين للمسلم كأفراد والذين قاوموا النزعات الحربية السائدة ، قد عوقبوا في الغالب وبقسوة على موقفهم ، فقد كان تردد لويس السادس عشر من حرب الاستقلال الأمريكي بداية فقدان شعبيته ، وبالمثل كانت ميول لوي فيليب خلال توتر الموقف مع بروسيا .

في مبدأ الأمر تبدو الحرب لرجل الدولة أنها الحل السهل ، إذ عندما يضطرب الموقف الداخلي وتسوء الأحوال ، ليس هناك من شيء غير إعلان لاعادة الهدوء . فالحرب تعفيه من عناء البحث عن حلول وسط والموازنة بين المصالح المتضاربة ، ومن الغريب أنه يمكن القول أن الحرب تعتبر نهاية للمشاجرات ، إذ أن الناس غالباً ما يتقاتلون فزعاً من المناقشة .

تعتبر الحرب فترة الراحة للحكومات ، وحتى عندما تكون ذات نظام ديمقراطي ، فإن الحرب تسمح لها بفرض الصمت والخضوع والطاعة السلبية وأنواع الحرمان الكثيرة على مواطنيها الذين ينقلبون في هذا الطرف إلى رعايا ، ويمكن تأجيل إجراء الانتخابات ويصير الزعماء غير قابلين للعزل .

والحرب هي أيضاً الحل الأكثر تملقاً للحكام ، فحالما تعلن ينقلب أقل رجال السياسة شأناً إذ يصل إلى السلطة ، إلى نوع من حبر أعظم تحيطه هالة من العظمة ، ومن الآن فصاعداً يموت باسمه المحاربون ، ومن ناحيتهم تحدث في الواقع ظاهرة تبلور إذ يصير الزعيم موضع عبادة وحب ، وحتى عندما يكون هذا الزعيم قاسياً ومنحلاً مثل يوليوس قيصر ، أو ماكراً وقاسي القلب مثل هاينبال ، ويؤكد النصر له الحب العميق من جنوده ، أننا نجد أنفسنا هنا تجاه ظاهرة دينية بلا جدال ، إذ أن الحرب تعمل على تقديس الزعماء . ففي روما كان يحاط القائد العسكري بالكهنة والعرافين ومقدمي القرابين ، وفي ظروف معينة كان يقدس ويقدم القرابين بنفسه . وفي العصر الوسيط كان من يريد أن يكون فارساً ، ينزل متأملاً خلال سهرات تعبدية .

لقد هيا دور الحكام في الحروب ولا يزال يهيء المجال لخلافات أكثر من دور المحاربين ، ومن مسائل علم الاجتماع الأكثر إثارة للجدل معرفة ما إذا كان الحكام لا يفعلون شيئاً سوى اتباع النزعات والرغبات المنتشرة لدى الجماهير أو أنهم على العكس يفرضون عليهم فعلاً آراءهم الخاصة .

ينبغي أولاً أن نفرق بين الطبقة الحاكمة والصفوة المختارة ، فالطبقة الحاكمة تمارس سلطة واقعية ، ولكنها لا تملك بالضرورة التفوق العقلي أو التقني على الجماهير ، ولذلك يتعرف الجمهور بسهولة على ذاته في حكامه أكثر منه في الصفوة المختارة ، وعلى العكس تختلف الصفوة المختارة عن الجمهور ، إذ أنها تتألف من رجال لهم معارف أكثر اتساعاً ، ويمتازون بروح الابداع وبفاعلية فوق المتوسط ، ولكنهم في أغلب الأحيان لا يمارسون أية سلطة .

هذه التفرقة التي أقامها سان سيمون في أوضح صورة تؤدي إلى الاعتقاد بأن الحاكمين يسايرون بصفة عامة العقلية السائدة أكثر مما يسبقونها أو يتناولونها بالتغيير . وكان تولستوي يقول : « إنه لا يمكن أن نصدق أنه إذا كانت أمة بأكملها ميالة للسلام ، يكفي لرعيم متهور أو أقلية ضئيلة أن يسوقونها حقيقة إلى الحرب ، لقد كان هذا يمكن تصوره على وجه الدقة في عصر الحروب بين الأسر الحاكمة ، عندما كان الأمراء يتقاتلون مستخدمين جيوشاً صغيرة من المرتزقة ، ولكن الصورة الموسعة للصراعات المعاصرة تتطلب المشاركة المخلصة ، إن لم تكن الحماسية لمجموع الأمة ويمكن أن نسلم أيضاً بأن الحكام لم يكونوا أبداً العلة المطلقة للنزاع ، ولكنهم دائماً لا يفعلون شيئاً سوى الاستجابة للفرصة الخفية لشعبهم ، وبالتأكيد عندما تسوء الأمور فإنه يمكن للحكام أن يستخدموا كبش فداء للشعور بالذنب الجمعي وفي أيامنا هذه على هذا الوجه جاء الاستنكار المتأخر لهتلر وموسوليني ، ولكن

وفي أيامنا تحاط ترقيات الضباط الشبان ، حتى عند الأمم التي تعتنق اللادينية رسمياً ، باحتفال تبجيلي مثير .

وأخيراً نجد لدى قادة الحرب ، لدى أولئك الذين يمارسون القيادة المطلقة ، ظاهرة يمكن أن يطلق عليها « عقدة ابراهام » إذ كل قيادة مطلقة تدعو صاحبها إلى حياة داخلية صوفية ، وفي اللحظات التي فيها تثقل مسئولياته سوف ينقاد حتماً إلى تفويض أمره إلى الالهام بالمعنى الحرفي للكلمة ، ومن ناحية أخرى تملّي القيادة المطلقة أيضاً مواقف سيكولوجية أبوية إلى الحد الذي يكون فيه الأب هو الرئيس المطلق السلطة والخبر الأكبر لاتباعه . ثم أن اللحظات التي تصل فيها السلطة الأبوية أوجها هي تلك التي فيها يأمر بتضحية الابن، وأتينا لنجد هنا ازدواجية التحليل النفسي لأن الأب يذبح إما الابن العاق وإما على العكس الابن البار ، قرباناً ممتازاً أو ضحية لا مثيل لها تقدم للآلهة . إن تضحية ابراهام هي التكريس الاسمي لعمل ما أو سياسة ما ، وعلى هذا المنوال كان إيفان الرهيب<sup>(١)</sup> . وبطرس الأكبر بعد جيفته (Jephté)<sup>(٢)</sup> وأجا ممنون (Agamemnon)<sup>(٣)</sup> وتقوم الحرب بطريق غير مباشر بهذه الوظيفة إذ يبعث الزعيم وينذر لها خيراً بئنائه ، والمحاربون من جانبهم كلما أحبوا زعيمهم أكثر وأعجبوا به أكثر كلما توقعوا أن يأمرهم بتضحيات لم يسمع بها .

ويبدو أن عقدة ابراهام تمثل أيضاً معنى آخر وهو معنى يختص بإبراز

---

(١) إيفان الرهيب : هو إيفان الرابع أول من أطلق على نفسه لقب قيصر وحكم روسيا من ١٥٣٣ - ١٥٨٤ .

(٢) Jephté : أحد قضاة اسرائيل في القرن الثاني عشر ق.م . وقبل أن يهاجم العمونيين نذر الله أول شخص يأتي لتهنته بالنصر هو ابنته الوحيدة واضطر الأب أن يفي بنذره وقلبه يعصره الألم والحزن .

(٣) (Agamemnon) ، كبير زعماء الاغريق - كما تقول الالابادة ، الذين حاصروا المروادة ، وقد قام بذبح ابنته الفجيبي مستجيباً لنصيحة العرافين ، لكي يهدى من غضب الالهة ديان وتسكن الريح الماكسة



أحياناً في الحروب الحديثة أن نتبين اللحظة التي تبدأ فيها النزعة الحربية والتشدد الذي يلازمها في الانحناء ، وحينئذ ينظر بلا نفور إلى الحلول الوسط التي كانت تبدو شنيعة في أول الأمر .

ويحدث انتهاء الحرب احساس قوي وفوري بالراحة ، وهذا الاحساس يشعر به أولاً المحاربون الذين يرون فجأة اختفاء التهديد الذي كان يحوم حولهم ، ويغرق الجميع في فرحة المغامرة المثيرة التي لم تنته نهاية بالغة السوء ، وفي الوقت نفسه تخفف أعمال الخدمة العسكرية الأكثر مشقة ، ولا يلبث أن يسرح البعض ، وينطلق البعض الآخر في إجازات طويلة أو قصيرة .

من اليسير تفسير الفرحة بالنسبة للبلد الذي حقق النصر إذ أنه وصل إلى أهدافه ، ويتوقع من النصر ضم أراضي والحصول على تفويضات وميزات سوف يفيد منها كثيراً أو قليلاً قسم كبير من مواطنيه . ولكن المهزمين أنفسهم ينظرون إلى حلول السلام براحة أكبر أحياناً ، فإذا كانت بلادهم قد احتلت ، فإنهم يأملون في الجلاء عنها وينتظرون نهاية المطالب وعودة الأسرى ورفع أنواع القهر .

ولكن من الواضح أن لا يستمر هذا الجو المريح دائماً ، وهذا صحيح بوجه خاص عندما تسبب الحرب تخريباً مادياً جسيماً إلى الحد الذي ينتج عنه استحالة العودة إلى الحياة الطبيعية ، وعلى هذا الوجه كانت الحال في عام ١٩٤٥ ، فإذا كانت الراحة عظيمة في نهاية الحرب ، فقد كانت الفرحة أقل مما كانت في عام ١٩١٨ ، فقد رأت أوروبا لأول مرة ما يمكن أن تكون عليه حرب شاملة ، وعرف كل إنسان عن تجربة أن نهاية الحرب لا تعني بالضرورة مجيء الرخاء .

إن الميل الطبيعي للنفس البشرية أنها تعتبر أن كل حرب هامة تختم عصراً وتفتتح عهداً جديداً ، ولا نرى تعسفاً في موقف المؤرخين الذين يفكرون على هذا النحو إذ أنهم لا يفعلون شيئاً سوى الامتثال للاتجاه العام

التزاع بين الأجيال<sup>(١)</sup> . ذلك أن جيل الآباء الأمرين من ذوي الرزانة الذين يجدون أنفسهم إزاء طغيان شباب فائر ذي أطماع الذي يتجاوز في عدده إمكانيات إرضائه وتوظيفه ، يميل أي يرى في الحل الحربي ، عن وعي أو بدون وعي ، العلاج لذلك الموقف الخطير .

## ٥ - النتائج السيكولوجية للحروب :

من الأهمية بمكان لعلم الحرب تحليل التصرفات السيكولوجية الفردية والجمعية التي تلاحظ في الفترة التي تلي استتباب السلام مباشرة .

وعندما نتحدث عن نتيجة حرب ما ينبغي دائماً أن نأخذ في الاعتبار الحقيقة بأنه يوجد بصفة عامة منتصر ومنهزم ، ولكن هناك درجات للهزيمة كما للنصر ، وهي تتراوح بين الخضوع التام للمنتصر أي الاستسلام بدون شروط كما تقول الصيغة القديمة : « تفويض الأمر إلى رافة الشعب الروماني » أي مجرد قبول معاهدة تلحق بهم الضرر . وأنا نجد هذه الفروق أيضاً عند البدائيين .

وتبدو الوظيفة الحقيقية للحروب بصورة أفضل كثيراً في الحروب التي تنتهي بالعودة إلى الحالة القائمة (Statuquo) والتي تنتهي إلى لا شيء ، منها في الحروب التي تغير الأوضاع تغييراً عميقاً ، ومن العتب آنذاك أن نبذل الجهد في البحث إذ أننا نضطر إلى تقرير أن دور الحرب لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير امتصاص الحماس الجياش والأموال الفائضة والرجال الزائدين عن الحاجة .

ومن وجهة النظر السيكولوجية أن الواقع الوحيد الجديد والناجم عن الحرب في هذه الحال ، يتمثل في أن عدوانية الافراد أي على الخصوص عدوانية الحكام وعدوانية المحاربين الأشد عناداً ، قد انتهت ، إذ من الممكن

---

(١) هذا التزاع بين الكبار والصغار من الذكور معروف تماماً عند الحيوانات .

والسني منذ آلاف السنين ، إذ بعودة السلام ينشأ لدى الناس انطباع بأنهم قد أنجزوا عملاً هاماً جداً وأنهم قد واجهوا وحلوا المشاكل التي عرضت لهم بأعظم الطرق حسماً ، لقد قاموا بإعادة الترتيب وأنهوا عهداً وافتتحوا عصراً جديداً ، ويقول فون برنহারدي (Von Bernhardi) أن الحرب هي امتحان للشعوب ، ذلك أن الفرحة التي تغمر الناس في فترة ما بعد الحرب تتماثل مع الراحة التي يعرفها الطلاب جيداً في الفترة التي تلي تلك الفترات الحاسمة من العام الدراسي ، عندما ينقضي الامتحان سواء بخير أو بشر .

إن ذلك الانطباع بأن الحرب امتحان للشعوب هو الذي يؤدي إلى اعتبار الحرب مصدراً للتعليم سواء بالنسبة للمحاربين أو للشهود المحايدون ، والاتجاه العام أن يلتحق الناس بمدرسة المنتصرين ، وعلى العكس يحتقرون أنظمة المهزومين وأخلاقهم ويحملونهم مسؤولية الهزيمة .

ومن وجهة النظر السيكلولوجية تتولد في فترات ما بعد الحرب بعض المركبات النفسية ، ومن الواضح أن أخطر هذه المركبات هي مركبات النقص لدى الشعوب المغلوبة التي تتضح غالباً في مواقف تكفيرية ، ويتقرر الانسحاق الكبير ، كما كانت الحال في فرنسا بعد هزيمة ١٩٤٠ . ويمكن اعتبار هذا الانسحاق أحياناً لطريقة سحرية قديمة نلقاها في كل العصور وفي جميع البلاد ، فقد كان الأقدمون ، بعد الهزائم ، يقدمون قرابين التوبة للآلهة ، ويفرضون على أنفسهم ألواناً من الحرمان . ولدى الحضارات الأقل إيماناً في القدم توجد الأضحية أيضاً ، ولكن في صورة ملتوية من العقوبة ، إذ من النادر ألا نشاهد في أعقاب الهزيمة اعدام لبعض الزعماء ، وأحياناً لقسم بأكمله من السكان الذين توجه لهم تهمة الاخلال بالكرامة أو ارتكاب الخيانة ، أنهم أكباش الفداء تظهر تضحياتهم الباقيين على قيد الحياة .

وهناك نتيجة أخرى للحروب وعلى الخصوص عندما تنتهي إلى سيطرة مستقرة بعض الشيء ، وتتلخص في التزام بمحاكاة المنتصرين . إذ ربما تكون

الحرب الصورة الأبعد أثراً في الاتصال بين الأمم ، فقد يمكن لبلد ما أن يغلق حدوده في زمن السلم ، ويكون شديد الكراهية للأجانب مثل الصينيين في القرن الثامن عشر ، ولكن هذا الجهاز الرائع لا يتماسك ولا يقاوم إذا ما حدث غزو . وتقضي الحرب على العزلة الثقافية والاقتصادية ، ولذلك من الملائم أن نفرق تفريقاً كبيراً جداً بين الحروب التي لم تكن إلا مجرد أحداث عارضة تنتهي بتعديل في الحدود ، وعلى العكس تلك التي تثير تغيرات في الأنظمة وفي العقليات ، ومن ثم تأتي الأهمية الكبرى للحروب الاستعمارية بالرغم من ضآلة مظهرها الحربي ، إذ أنها تثير تغيرات اجتماعية حقيقية . وهكذا كانت حملات كورتيز Cortez وبيزار Pizarre الصغيرة أهم للحضارة الإسبانية من حروب شارلكان .

تستمر تهدة النزعة الحربية بوجه عام الفترة اللازمة لاصلاح الخسائر التي أحدثها النزاع السابق ، وقديماً كانت هذه النقاها تستمر فترة طويلة ، لأن النمو السكاني كان ضعيفاً . أما في أيامنا فإن المذابح الرهيبة تفوض في بضع سنين . وحينذاك نرى المطالب تستيقظ من جديد ، وتفكر الشعوب المهزومة في الثأر ، ويرى المنتصرون أن تضحياتهم كانت تستحق تفويضاً أعظم من الغنائم من ضم أراضي وإذلال للخصم ، وهكذا تغلق الحلقة وتتهيا النزعات الحربية للظهور من جديد .

## ٦ - صور من السلمية ( الميل للسلم ) : **Forme de -pcifisme**

من المناسب أن نمحص هنا السلمية (Pacifisme) أي الميل للسلم حيث أنه يمكن اعتباره جزءاً من السلوك السيكولوجي الداخلى في المركب : « ظاهرة الحرب » .

والميل للسلم هو الضد من النزعة الحربية : ولذلك فإن الميل للسلم يزدهر بصفة عامة بعد الحروب ، وإذ يشير هذا الميل إلى هبوط في التشنج الحربي أو إلى نقصانه ، فيمكن أن نعتبره رد فعل سيكولوجي فوري ، فهو

يؤثر في الرأي العام دون أن يلجأ مسبقاً إلى تدليلات معقدة مثل الأقضية اللاهوتية أو الفلسفية ، ولا يمر الميل للسلم أيضاً بنظريات عليّة مسبقة ، مثل مشروعات السلام ، بل إنه لا يعد وأن يكون تعبيراً عن موقف أو رغبة ، أنه تصرف فوري ، بل إنه حالة نفسية لا تعليل لها أيضاً .

ولكن حيث أن الانسان بصفته كائناً اجتماعياً في أساسه ، فإن ردود الفعل التلقائية تتخذ لديه دائماً صورة منسقة و متميزة تبعاً للجو الثقافي الذي يختص به . وعندما يتصل الأمر بالميل للسلم ، يمكن اعتبار أن الطريقة التي يصاغ بها طلب السلام تعتمد اعتماداً وثيقاً على التصور السائد عن مغزى الحرب ، ويبدو لنا تبعاً لذلك أن الاتجاهات والمذاهب السلمية تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين تبعاً لاستمرار أصحاب هذه المذاهب في اعتبار الحرب شيئاً مقدساً وفي الوقت نفسه يلعنونها ، أو على العكس يجردونها من هذا التبجيل ويعالجونها كشيء غير مقدس مستحق للذم أو البغض .

#### السلمية المقدسة : Le Pacifisme Sacré

وهي سلمية التوراة . إذا ما اعتبر ، كما رأينا ، قصاصاً من الله للأشرار والخطائين ، فإن سلمية الأنبياء تكمن في السهر بعزم وحزم لكي لا يكون هناك كفر أو فسق أو دنس مما يجلب على المجتمع عقاباً إلهياً .

#### السلمية عند الرومان : Le «pacifisme Romain

إن السلمية عند الرومان هي سلمية المتصرين الذين بلغ منهم السأم من كثرة ما غلبوا وما أنزلوا من عقاب ، ولكنهم يستمرون مع ذلك في تحميل أعدائهم المهزومين كل المسؤولية ، ذلك أن دور روما هو أن تحكم وتسيطر وأن تقول كلمة القانون بين الشعوب ، ويعدو عصيانه أمر الشعب الروماني جريمة ضد سلطته العليا وجحود في نفس الوقت .

#### السلمية القدرية : La Pacifisme Fataliste

وتتلخص السلمية القدرية في موقف عدم المقاومة ، ذلك أنه مهما تبلغ

## السلمية المعتدلة : Le Pacifisme Modéré

تهدف هذه السلمية إلى اصفاء جانب أخلاقي على الحرب بدلاً من استنكارها بشكل رسمي ، ونجد هذه السلمية عند جميع المؤلفين في القانون الدولي الذين يقتصر مذهبهم على إنكار القسوة ومنع أنواع الظلم الذي يتجاوز الحدود .

## السلمية الحربية : Le «pcifisme Belliqueux

وهي تلك التي تحض الشعوب على القتال لأجل وضع نهاية للحرب ، وهذه السلمية هي التي استخدمتها وأساءت استخدامها الدعاية لدى كل المتحاربين خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ وذلك باستخدام عبارات مثل « حرب على الحرب » . وغالباً ما استخدم الغزاة العظام تلك الصورة من السلمية بمثابة تبرير مسلكهم مثل نابليون الذي أشار في مذكراته إلى أنه كان يريد تحقيق السلام الدائم عن طريق إقامة دولة متحدة .

## السلمية المجردة من الاحترام : Le Pacifisme Irrévérrencieux

وهي تلك التي تعمل جاهدة لا لتجريد الحرب من صفة القداسة فحسب بل لتتزع عنها الاعتبار العظيم الذي يضيفه عليها أدب الملاحم في جمع صوره والتربية التي تتلقاها، هذه السلمية وتستر سخطها بأن تجعل العادات الحربية والشعور القومي العدواني موضعاً للسخرية ، وتهاجم الزعماء وأسطورتهم ، وإذا لتجد في قصة كانديد Candide لفولتير ومعجمه الفلسفي ، وجزيرة البنجوين L'Ile des Penguins لأناتول فرانسي التعبير الأكثر إثارة عن هذا الاتجاه . وقد عرفت هذه السلمية ثمراً هائلاً بعد حرب ١٩١٨ . وكان الشاعر جاك برفير Jacques prévert<sup>(١)</sup> في فرنسا خير معبر عنها في الأدب وكذلك كان فريق مجلة كنار أنشينة (Canard Inchaîne) وصحيفة كرابويو (Crapouillot) في ميدان الصحافة .

(١) جاك برفير له المؤلفات : أقوال «Paroles» ومعركة فونتوي (La Bataille de Fontenoy)

جهود الرجال ، فلن يكونوا سادة لا للسلم ولا للحرب ، ولا للنصر ولا للهزيمة ، وتكون الحرب هي الأداة التي لا مفر منها للمصير ، ويصير المنتصر أنه هو الذي اصطفته الآلهة وأنه لا مفر من الخضوع له .

## Le Pacifisme Excluant la Notion De Sacke

السلمية النافية لفكرة المقدس

### أو السلمية في الانجيل Le Pacifisme evangélique

الأمر الغريب هنا أننا إذ نستند إلى نصوص عديدة ، نستطيع أن نعتبر أن العهد الجديد من التوراة لا ينظر إلى الحرب كأنها شيء مقدس . ومن حيث أن الله لم يكن في الواقع مسئولاً أبداً عن الحرب ، فتكون الحرب إذن أمر بشري محض ، وتكون الحرب خطيئة « إن الذي يضرب بالسيف سوف يهلك بالسيف » .

وحتى عندما اضطرت الكنيسة فيما بعد إلى أن تتشد مع السلطات الزمنية ، وعلى وجه الخصوص خلال الحروب الصليبية ، قد احتفظت الكنيسة بآثار عديدة من ذلك الموقف الأول ، ومبدئياً تغدو الحرب محرمة على كل أعضاء الهيئة الكنسية .

ويمكن أن تتماثل سلمية الانجيل بالمذاهب القائلة بعدم العنف عند بوذا وتولستوي وغاندي .

### السلمية الباكية : Le Pacifisme Plaintif

تنطلق هذه السلمية من وجهة النظر القائلة بأنه يكفي تذكير الناس بقسوة الحروب وكم تحدث من تدمير ونهب ومذابح وآلام من كل نوع ، لكي يشمئز الناس منها (ولكن النائمات لم يشفين أبداً أي مريض) .

ويبدو أيضاً اعتبار الحرب نوعاً من خطأ في الحساب يقع فيه الحكام ، فإنها لدى الشعوب نوع من خطأ في الاندفاع قائم على الخفة والغضب .

## الفصل السادس

### الأسباب المعزوة للحرب ومشروعات السلام

يقول نوفيكوف (Novicow) : « يبدو أن تواتر الحروب ذاته يثبت أنها لا تحمل شيئاً ». وما يقوله نوفيكوف عن الحرب يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على السلام ، ذلك أن السلام لا يأتي بأية حلول وكذلك المعاهدات التي تكرسه . وقد أمكن إحصاء ثمانية آلاف معاهدة للسلام معروفة جاءت بعد ثمانية آلاف من الحروب ، ودائماً كان لزاماً أن نبدأ من جديد .

ومع ذلك فقد بذلت المساعي منذ وقت مبكر بحثاً عن وسيلة لارساء السلام على دعائم أكثر ثباتاً من تلك المتعلقة بالمعاهدات الخاصة ، ومن وجهة النظر التشريعية لوحظ أن معاهدات السلام ، لمجرد أنها تضع نهاية للقتال ، تتسم كلها بالعنف ، ولا يفوت المهزمون أبداً اعتبارها لاغية عندما تسنح أول فرصة . فكان ينبغي إذن أن نحاول الخروج من الدائرة التي تجعل العنف يولد العنف دائماً ، وكان ينبغي محاولة إحلال نظرات عامة محل النظرات الخاصة ، وأن تستبدل العهود والمواثيق بقاعدة ثابتة أو قانون دولي يتيح تفادي اللجوء إلى القوة .

ولكن ينبغي أن نعرف مبدئياً الوقائع التي تعكر صفو السلام لأجل سن القوانين الكفيلة بأبعادها ، وعلى هذا الوجه قامت كل مشروعات السلام التي





يضاف إلى ذلك رأي جيرمي بنتام J. Bentham الذي اقترح أيضاً إلغاء جميع المستعمرات ، وتقوم نظريته على الحقيقة بأن الدول الأوروبية كانت في ذلك العهد ، تعتبر المستعمرات أسواق مقتصرة على صناعتها وتجارتها ، وابتداء من عصر النهضة الأوروبية صرفت إنجلترا عن فتوحاتها في القارة الأوروبية ، وفي كل مرة شاركت في حرب وانتصرت فيها ، كانت تحصل على مزايا استعمارية ، ومن الطبيعي أن بنتام وهو عالم اقتصاد انجليزي ، قد انساق إلى أن نستنتج من ذلك أن البحث عن مستعمرات جديدة كان العلة للعدوانية البريطانية .

وقد وضع أحد مشروعات السلام هذه والذي يستنكر المذهب الموجه في الاقتصاد ، موضع الاختبار : لقد انتصر أصحاب المذهب الحر في القرن التاسع عشر ، وأدى انتصارهم إلى ازدهار هائل في الانتاج والتوسع الأوروبيين ، ولكن يبدو أنه لم يكن لهذه التحولات تأثير كبير على عدوانية الجماعات والأمم ، وعلى أكثر تقدير يمكن القول أن الحروب قد غيرت من نعمتها ، ولكن كان الأمر كذلك في كل مرة يحدث تحول في تركيب الدول أو سكانها أو اقتصادياتها .

وغدا الاقتصاد الحر بدوره موضع اتهام بأنه العلة الرئيسية للحروب :

فقد انتهت الحرب العالمية لعام ١٩١٤-١٩١٨ بانتصار المذاهب الاشتراكية ، وكانت هذه المذاهب في الواقع في ذلك العصر على الأقل ميالة للسلم ومؤيدة للأمية ومعارضة للحرب في آن واحد ، وعلاوة على ذلك حيث أن الأحزاب الاشتراكية لم تكن بيدها مقاليد السلطة في أي من البلاد المتحاربة ، فإن هذه الأحزاب لم تتحمل على أي وجه المسؤولية الايجابية أو السلبية للحرب ، وحيث أن الرأسمالية كانت هي النظام الاقتصادي السائد في ذلك العهد ، فقد كان من اليسير أن نستنتج من ذلك ، إن خطأ أو صواباً ، أن الرأسمالية هي المحرك الوحيد للحرب

قدمت لنا عبر القرون الطويلة سواء بطريقة مضمرة أو صريحة ، على نظرية  
علية للحرب .

وقد تولدت مشروعات السلام بوجه عام بعد سلسلة من الحروب ،  
وتعكس هذه المشروعات الاعياء والسخط والرغبة في الانتهاء من الحرب ، وهي  
الخصائص التي تميز فترات ما بعد الحرب . ولكن لكل عصر بواعثه المفضلة  
للحرب والتي تؤثر في المعاصرين وتغذي أفكارهم ، وعن طريق التعميم الذي  
نجدته في أساس كل المذاهب السسيولوجية ، يمتد هذا الباعث في كل مرة إلى  
جميع الحروب الماضية منها والحاضرة والمستقبلية ، ويقول لنا أصحاب  
مشروعات السلام في إيجاز : « لقد أثبتنا منذ قليل أن تلك الحرب التي  
كدرت عصرنا ، كان لها تلك العلة المحددة ، هذه العلة إذن هي المولدة لكل  
الصراعات المسلحة ونقترح عليكم ذلك الاجراء الذي سوف يكون من  
نتيجته إبطال الحرب ومنعها وبالتالي تحقيق سلام نهائي » .

## ١ - مشروعات السلام القائمة على الاقتصاد :

يمكن القول إجمالاً أن العالم الأوروبي قد عاش منذ عهد الامبراطورية  
الرومانية البيزنطية تحت نظم متنوعة من الاقتصاد الموجه ، وعلاوة على ذلك  
فقد قدمت البليونيزم (الاتجاه إليهم للحصول على المعادن النفيسة ) ثم  
المذهب التجاري كضرورة لتأكيد القوة العسكرية للدول ولأجل إقامة خزائن  
الأموال الحربية ، ومن حيث أن الحروب لم تتوقف أبداً ، كان من الطبيعي  
أن ينساق الإنسان إلى التفكير أن نظريات الاقتصاد الموجه والحماية  
الجمركية ، ومذهب كولبير Colbertisme والمذهب التجاري ، كانت جميعها  
أسباباً للحرب ، وعلى هذا الوجه هب أصحاب المذهب الطبيعي ضد نظرية  
كولبير ، وقام أصحاب المذهب الحر ضد مذهب الحماية الجمركية ، وفي رأي  
أصحاب المذهب الحر أن التبادل الحر يجب أن ينهي فوراً كل الخصومات  
الاقتصادية بين الأمم .

في ضوء التجربة التاريخية هل يمكن أن تثبت إطلاقاً أن الرأسمالية كانت بصورة مطلقة وثابتة أكثر أو أقل تحريضاً للحرب من النظم الأخرى ؟ وهل اختفاء الرأسمالية سيؤدي إلى ضمان السلام العالمي كما يؤكد البعض ذلك ؟

لنتدبر أولاً أمر صانعي الرأسمالية الحديثة الأوائل ، لقد كانت سياسة الدول التجارية الأولى مثل قرطاج أو البندقية أو البلاد المنخفضة ميالة للحرب تارة وسلمية تارة أخرى تبعاً لما تمليه مصلحتها والظرف التاريخي ، فتتجه إلى الطريق الأول أو الآخر ، ولم تكن هذه الدول تستطيع على أية حال أن ترتضي بحالة حرب دائمة مشابهة لتلك التي كانت قائمة في العصر الوسيط السحيق أو عند بعض البدائيين مثل المغول ، ذلك لأن التجارة والأشغال تتطلب فترات من السلام ، وعلاوة على ذلك هذا ما جعل هربرت سبنسر يؤمن بأن الحالة الصناعية تحمل معها السلام .

ومن ناحية أخرى ليس هناك من وجهة النظر السيكلوجية إكبار للمجد الحربي في لندن أقل مما يكون في برلين أو روما أو نيويورك فقد كان المجد الحربي موضع تكريم في البندقية وفلورنسا وأمستردام ولقد أوضحت التجربة اليوم أن الدول الاشتراكية ليست أقل إحساساً به ، إذ أن إرادة القوة والنوازع الحربية تبدو مستقلة تماماً عن النظم الاقتصادية ، وكذلك الحال في غط التسلسل السياسي أو الاجتماعي لتنظيم العمل أو الاستيلاء على مصادر الانتاج أو الاستهلاك ، في النظام الارستقراطي والاقطاعي والبلوتوكراسي<sup>(١)</sup> والرأسمالية والاقتصاد الجمعي أو الاشتراكي ، سواء البدائي أو الحديث ، وفي الرق أو العمل الحر أو الاجباري ، وفي نظام رقيق الأرض أو الملكية الصغيرة ، أننا نجد الجيوش والحروب في كل هذه التراكيب .

ومن الناحية النظرية يمكن لكل حاجة أن تؤدي إلى صراع يهدف إلى

---

(١) البلوتوكراسي (Ploutocratie) وهو نظام حكومة الاثرياء .

إشباع هذه الحاجة على حساب الآخرين ، وكل خلاف اقتصادي يمكن أن يسوء وأن يتولد عنه نزاع ، ولكن ألا يكون الأمر كذلك في كل خلاف ؟ وعلى العكس قد يبدو أن المباحثات الاقتصادية يجب أن تكون أفضل ميدان للمساومة والتوصل إلى حلول وسط .

ومن النادر مع ذلك أنه يمكن لموقف اقتصادي ما ، كالأحصائيات مثلاً ، أن يفسر بعدة طرق مختلفة ، ولذلك يمكن القول أن من بين الأسباب الاقتصادية للنزاع ، تبدو النظريات الاقتصادية التي يؤمن بها أصحابها من بين أهم الأسباب ، وهي يقيناً أكثر أهمية من الظواهر الاقتصادية الحقيقية ، لأننا نفسر ونحلل الموقف الراهن عبر معتقداتنا وآرائنا ، باختصار غير عقليتنا ، وإذا كانت المذاهب الاقتصادية الراهنة ترى أن الموقف لا يمكن حله إلا عن طريق الحرب ، فإنه من المحتم أن يتأثر رجال الدولة والرأي العام بذلك وقد قال إيلي فور (Elie Faure) : « إننا لا نخطئ كثيراً إذ نعتقد أن في الحرب كسب ولكن عندما نعتقد أننا نشن الحرب لأن نجني من ورائها ربحاً » .

ومهما يكن من أمر فليس هناك أي عالم اقتصاد أو أي مؤرخ أو أي رجل سياسي لم يستطع أبداً أن يعرف أو يحدد في أي درجة في النزاع الاقتصادي يجب بالضرورة اندلاع الحرب . ومع ذلك تبين التجربة أن التدمير الذي تسببه أية حرب يتجاوز عموماً بكثير قيمة الكسب الاقتصادي الفوري . وعندما تنقلب الصراعات الاقتصادية إلى معارك دامية ، فإن ذلك يحدث لأنه قد أضيف إليها عامل يجعل الخصوم في التو يصمون آذانهم عن أصوات التصالح والوصول إلى حلول وسط . وفي الاختصار يبدو أن العوالم الاقتصادية تكون في أغلب الأحيان في خدمة النوازع الحربية ، ويكون الاقتصاد دائماً وفي كل الأحوال وبدون استثناء واحداً من أدوات الحرب . ولكن لا يبدو التبادل هنا صحيحاً ، إذ ليست الحرب دائماً أداة للاقتصاد .

وعندما يكون نظامان من الدول لكل منهما عقيدته السياسي في راع طويل ، فليس في الامكان أن نعرف مقدماً أي من النظامين سوف ينقلب ، وحتى عندما ينتهي النزاع بانتصار كامل لأحدهما ، فمن النادر أن تبقى النية العقلية والمادية للمنتصر ذاته سليمة بعد مثل هذه الأحداث ، بل يخرج منها بوجه عام ببعض التحول ، وهذا هو الحال بصفة خاصة في الصراعات المعروفة لدى الأمم المندثرة ، وفي الحروب البونية<sup>(١)</sup> فقد غير المجتمع الروماني والدولة الرومانية بسرعة من طبيعتها بعد الانتصار ، وفي مرات أخرى يأتي الصدام بين قوتين متنافستين بحل لم يكن في الحسبان ومثال على ذلك الصراع الذي استمر عدة قرون بين البابوية والامبراطورية المقدسة ، فقد كان النظام الاقطاعي يعد الشعوب والجماعات بالأمن عن طريق فرض جزية على زعمائها ، وكانت الكنيسة من جانبها تعد أيضاً بالأمن نظير الخضوع لمذهبها العقائدي ، وفي آخر الأمر أضعفت القوتان كل منهما الأخرى ، وحدث بينهما بالحل الذي لم يخطر على بال أحد ، وهو الذي يتمثل في حركة النهضة الأوروبية ، أي نشأة تفكير سياسي وثقافي في آن واحد ، واتجاهات جديدة كل الجدة .

### ٣ - مشروعات الدولة الواحدة :

يمكن تلخيص النظرية العلمية التي هي في أساس تلك المشروعات على الوجه التالي : أن الحرب هي النتيجة المباشرة لسيادة الدول ، وطالما كانت هناك دول مستقلة ذات سيادة ، سواء أكانت كبيرة أو صغيرة ، فسوف ينجم عن ذلك منافسات أو أطماع أو أحقاد تؤدي بالنتيجة إلى الحرب . ومع ذلك فإن التجربة تبين أن أقطاراً كانت في عداة متوارث خلال قرون عديدة ، أصبحت بلداً واحداً وأهلها صاروا أشقاء وأصدقاء متحابين عندما أدمجت هذه الأقطار ، وغالباً عن طريق القوة ، في نظام سياسي واحد .

(١) الحروب البونية Les guerres Puniques .

## ٢ - المشروعات السياسية للسلام :-

قبل أن نتناول المشروعات السياسية المختلفة التي اقترحت لاقامة السلام ، ينبغي أن نلقي نظرة سريعة كما فعلنا بشأن مظهرها الديمغرافي أو الاقتصادي ، على النتيجة السياسية النهائية التي تنجم عن الحرب ، ويقول آخر ينبغي أن نرى ماذا يمكن أن تكون الوظيفة السياسية للحروب .

وقد يبدو عسيراً ، اللهم إلا إذا أسقطنا تماماً كل التناقضات ، أن تربط نتائج الحروب بأنماط المجتمعات وكذلك بالمعتقدات والتقنيات ، إذ أننا نرى غالباً في مجتمعات بل أكثر من ذلك في مجتمع واحد بعينه ، صراعات تأتي أحياناً بنتائج متناقضة تناقضاً تاماً .

ومن ناحية المعتقدات والنظم السياسية غالباً ما يحدث أن تمسح الحروب لآثارها المتبقية منها ، ولكن يحدث أحياناً أنها تؤكد هذه النظم وتلك المعتقدات ، كانتصارات اليابان حتى عام ١٩٤٥ مثلاً ، إذ أدت إلى تحويلها إلى التقنية الأوروبية وفي الوقت نفسه ، دعمت عبادة الامبراطور والعقائد الدينية التقليدية ، والقاعدة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من معظم الملاحظات هي أن المنتصر بوجه عام يثبت في معتقداته لأنه يعزو إليها النصر ، وعلى العكس ينساق المهزوم غالباً إلى التشكك في أيديولوجيته وأنظمته ، ويصحب الهزيمة غالباً أزمة في النظام السياسي وأزمة في الضمير ، ولذلك قد تكون الهزيمة غالباً أكثر ديناميكية من النصر اللهم إلا عندما تكون تدميراً كاملاً ، وبإيجاز فلإن النصر يثبت النظام القائم والهزيمة تغيره .

ولكن التحولات السياسية التي تأتي بها الحرب لا تعني حتماً تقدماً إذ أنه يمكن أن ترد إلى دولة سياسية أكثر بدائية وعلى هذا الوجه كان انصار قبائل البرابرة على روما ، وهو الانتصار الذي نقل أوروبا عبر عدة قرون من امبراطورية منظمة تعيش في إطار من نظم سياسية وتشريعية علمية إلى دولة قبلية شبه بدائية ثم إلى التفتت الاقطاعي .

والعاهل الوحيد سوف يعمل إذن على نشر العدالة والسلام في العالم مثلما يفعل في أقاليم امبراطورية مترامية الأرجاء هو الذي يتزعمها ، وعلى هذا الوجه كان المواطن الروماني في القرن الأول ، والمواطن الاسباني في القرن السابع عشر ، والمواطن الانجليزي في القرن التاسع عشر ، إذ كان كل منهم يكون فئة متميزة وسط مجموعة من الشعوب الخاضعة المستكنة ، ويمكن أن نطلق على هذا التصور التعسفي للوحدة اسم « مركب الشعب المختار » .

ولقد دافع عن هذا الرأي في الوقت الحاضر امري ريفان Emery Reves<sup>(١)</sup> الذي يرى أن التقدم التقني اليوم ملائم لتحقيق قيام الدولة الواحدة فيقول : « الآن ولأول مرة في التاريخ يبدو غزو العالم بواسطة قوة واحدة إمكانية جغرافية وتقنية وعسكرية . . . ومن جهة النظر التقنية والعسكرية يبدو العالم أصغر بكثير مما كانت أرض أية دولة من الدول العظمى في القرون المنصرمة وصار أسهل للولايات المتحدة وأسرع بدرجة كبيرة أن تشن حرباً في الشرق الأقصى مما كان يتهدد ليويلوس قيصر أن يفعل في انجلترا أو في مصر » وإذا كان الناس لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم لبلوغ النظام العالمي عن طريق الوسائل السلمية والديمقراطية ، فإن المؤلف يتمنى أن يعجل مجرى الأحداث بتوحيد الشعوب عن طريق عمل عنيف لأحد الغزاة .

وتتضمن هذه القضية الحجتين الرئيسيتين اللتين استخدمهما الغزاة دائماً لتبرير فتوحاتهم ، فالحجة الأولى هي : « البحث عن الأمن » ولكن هذا الأمن هو كالأمن الذي لا يمكن معرفته في رأي سبنسر Spencer عندما يقول : « كل فتح عندما يتوسع في حدوده ويمد خطوط مواصلاته ، يزيد من المناطق التي ينبغي عليه أن يدافع عنها ضد الاعتداءات المحتملة ، وليس هناك حد إذن لفتوحات ذلك الذي يدعى الوصول إلى الأمن الكامل » ومع

---

(١) امري ريفان Emery Reves مؤلف كتاب « تشرح السلام » Anatomie de la paix طبعة نيويورك ١٩٤٣ والترجمة الفرنسية - باريس ١٩٤٦ .



ذلك يعلن ريف في هذا السياق : « أن الدفعة نحو الأمن هي العلة الرئيسية للامبريالية » . وتتلخص الحجة الثانية في أن كل محاولات السيطرة على العالم التي خضبت الأرض بالدماء كان هدفها المعلن العمل على أن يسود النظام والسلام إلى ما شاء الله .

إن مجرد نظرة سريعة في التاريخ تثير الشك في المزايا السلمية للدولة الواحدة ، ويكفي أن نرى كم كانت قصيرة نسبياً فترات السلام التي تلت قيام الامبراطورية الصينية أو الامبراطورية الرومانية بالنسبة إلى المجهودات الهائلة التي بذلتها الشعوب والتضحيات الضخمة التي عانتها ، وينتهي الأمر بأن تفرض الحرب الأهلية نفسها على الدول التي لا سبيل لأي حرب أن توازن قوتها ، وتحل صراعات الأحزاب ونزعات الأسر الحاكمة والنزاعات الداخلية والمنافسات بين الجيوش وقادتها ، وتوارث السادة الاقطاعيين أو حكام الأقاليم محل الحروب الأمية<sup>(١)</sup> .

#### ٤ - الأهمية التاريخية للحروب الأهلية :

هناك اتجاه لدى معظم المؤرخين لاعتبار الحروب الأهلية حروباً ذات أهمية ثانوية . ولكن الحروب الأهلية على العكس جديرة بأن تكون لها في الغالب الأهمية الأولى لأكثر من سبب ، إذ يمكن في الواقع القول أنها من أشد الحروب ضراوة إذا نظرنا إليها من ناحية نوعيتها وشدتها ، ومن وجهة النظر الكمية والسكانية فإن الحروب الأهلية تسبب بوجه عام أعظم تخريب وأكثر ضحايا ، وعلى طول تاريخ أوروبا الحديث حدث أعظم قدر من التدمير في حرب الثلاثين عاماً وفي الحروب الدينية في فرنسا ، وكذلك أحدثت حرب الانفصال الأمريكية من الخسائر البشرية أكثر من الحرب الفرنسية الألمانية في عام ١٨٧٠ ، وبعد حرب ١٩١٤ كلفت الثورة الروسية من الضحايا في ذلك البلد أكثر مما تكلفت في المعارك الدولية التي سبقتها ، وأخيراً فقد تكبدت

(١) انظر كتاب «ثمانية آلاف معاهدة للسلام» ص ٢٣ وما بعدها .

اسبانيا التي لم تشترك في الحرب الأوروبية لعام ١٩١٤-١٩١٨ ، نتيجة للحرب الأهلية من ١٩٣٦ - ١٩٣٩ من الخسائر ما هو أعلى نسب من خسائر معظم الدول التجارية خلال تلك الحرب .

وهكذا تتوالى على الدول أطوار من التماسك ومن التفكك، وتبعاً للظروف المؤاتية تقوم امبراطوريات عظيمة ثم تتفكك ويلاحظ أن التفتت يبدأ عموماً من جانب الأقاليم الأشد بعداً ، ولكن العمليتين، عملية التجمع مثل عملية الانفصال ، اصطحبها صراعات دامية ، وأكثر من ذلك أن الحرب هي الأداة نفسها لهذا التطور .

وأن تجارب نظام الدول العظمى التي أقيمت في الماضي تبدو إذن غير مقنعة بالمرّة بالنظر إلى إمكانية إلغاء الحرب بهذه الوسيلة . فقد سارت الأمور كما لو أنه كان هناك مبدأ تعويض ، إذ حل محل الحروب الأصغر والأكثر تواتراً بين السادة الاقطاعيين أو بين الدويلات على فترات العد ، حروب أهلية كبيرة تنزلت بضربة واحدة خسائر تعادل ما أحدثته تلك الحروب الصغيرة .

## ٥ - مشروعات التوازن بين الدول :

إن مشروعات التوازن بخلاف المشاريع القانونية والتي تقوم على فكرة مجردة من القانون ومن المساواة في السيادة - تأخذ في الاعتبار عامل القوة ، وهي تنطلق من وجهة النظر القائلة بأنه يمكن صيانة السلام بمقابلة القوى التي تحدث التوازن ويجمد بعضها البعض الآخر .

وأن مشروعات التوازن هذه إذن رادعة على الخصوص فهي تأمل في استتباب السلام سواء كان عن طريق تقسيم العالم بين دول ذات قوى متعادلة ، وعلى هذا الوجه يمكن أن يحترم بعضها البعض الآخر ، أو عن طريق عقد الاتفاقيات والمعاهدات أو الأخلاق ، ويرى أصحابها أن محاولات شن الحرب سوف تكون أقل إذا ما أظهرت المساواة في القوى المتواجهة أن

النصر في الحقيقة أمر مشكوك فيه جداً من الجانبين .

ومن المناسب مع ذلك التأكيد على المظهر الهجومي لمثل هذا التصور ، ذلك أن هذه العقيدة إذ تعمل جاهدة لكي تمنع بأي ثمن أن تزيد أسرة حاكمة أو أمة من قوتها إلى درجة تصبح معها خطراً على جيرانها ، تعتبر مصدراً لا ينضب للحروب ، لأن هذا الرأي في تحليل آخر يعتمد إلى أن يوصي الأمم ، كما فعل مكيا في ، بالقيام بحروب وقائية كلما تسنح الفرصة . وأن تاريخ أوروبا بوجه خاص عبارة عن تدخلات ومعاهدات وتحالفات وتكتلات وحروب عامة تكون نظرية التوازن هي الفكرة الموجهة لها . ولا جدال في أن أوروبا قد نجحت بفضل هذه النظرية في أن تمنع منذ العهد الروماني ، قيام امبراطوريات شاسعة كما حدث في حضارات الشرق الأدنى والأقصى ، ولكن ينبغي أن نقرر أن السلام لم يخرج من كل ذلك إلا بفائدة هزيلة .

وأن مشروعات التوازن التي تتضمن ، مثل مشروع سولي Sully ، إعادة سبك وتقسيم عام ، قليلة جداً وهذه المشاريع تهدف إلى أن تقيم تقسيماً مبنياً على العقل للأرض والتخوم بدلاً من الحدود التاريخية التي خططتها في الغالب نتائج المعارك الحربية . والغريب في الأمر أن التطبيقات التاريخية القليلة لهذا المبدأ قد تمت عن طريق تفتيت وتصفية اختيارية وسلمية لدول عالمية عندما رأى سادتها أنه لا يمكن أن تبقى على هذه الصورة ، وأشهر مثل لذلك هو تقسيم الامبراطورية الرومانية الذي قام به ديوقليط ، ثم تقسيم امبراطورية شارلمان بين أبنائه الثلاثة ثم تقسيم امبراطورية شارلمان .

٦ - مشروعات سلام قائمة على النظم السياسية للدول ومعتقداتها :

غالباً ما تتهم النظم السياسية الداخلية للدول بأنها من أسباب الحرب وقد كان هناك دائماً أصحاب نظريات يرون بأن هذا النظام السياسي أو ذاك

هو في أساسه ميال للحرب ، وأن نظاماً آخر عامل من عوامل السلام .  
على هذا الوجه نرى في العصر الوسيط ظهور الفكرة القائلة بأن النظام  
الملكي قد أتى معه بالسلام عندما وضع نهاية للحروب الاقطاعية التي كانت  
آنذاك الجرح الدامي لأوروبا .

وللأسف انطلق النظام الملكي يثير سلسلة لا آخر لها من الحروب بين  
الأسر الحاكمة ، فحرب المائة عام وحروب إيطاليا وحروب لويس الرابع عشر  
قامت في شرعيتها على تصور وراثي للدولة ، إذ كان الملك الذي يبدأ بشن  
الحرب ، يطالب بوجه عام بميراث يدعي أن له الحق فيه ، وإذا كانت  
الحروب ، خلال القرن التاسع عشر ، أقل مراعاة للحقوق الأسرية منها في  
العصور السابقة ، فقد استمرت الحروب مع ذلك الشغل الشاغل للملوك .

وإذ كان للملوك هذه المكانة الأولى في شن الحرب فقد صار لهم  
بدورهم النحل الأول من اهتمام الساعين إلى السلام وكانت القضية العامة  
تتلخص في أن الملوك يرغبون في الحروب بسبب أطماعهم وحرصهم وغرامهم  
بالمجد أو لأجل أشغال الناس عن المشاكل الداخلية وإبقاء الشعب في حالة  
خضوع ، وإذ يتناسى بعض الكتاب الأمثلة التي تعرضها جمهوريات العصور  
القديمة وجمهوريات البندقية فقد اقتنعوا بأن تحول الملكيات إلى جمهوريات  
يؤدي إلى السلام العالمي ، ويؤكد روسو كثيراً على الروح السلمية  
للجمهوريات ، وألف فيكتور هيجو قصائد عظيمة يصب فيها لعنته على  
الملوك والأسر الحاكمة .

ولكن النظم الديمقراطية قد أثبتت منذ قيامها وبصورة شاملة قدراتها  
الحربية ، وقد ولد نظام التجنيد الحديث في عهد الثورة الفرنسية ، ولم تظهر  
الخدمة العسكرية الاجبارية الحقيقية من جديد بعد العصور الخالية إلا في  
المجتمعات الديمقراطية في العصر الوسيط ، ولأجل أن نصل في آخر الأمر إلى  
الحرب الشاملة كان ينبغي أن تتقاتل فيما بينها نظم ديمقراطية شعبية . ولم يكن

أبدأً للملك في العصر القديم أن يطالب رعاياه متطلبات قاتلة كتلك التي  
تطلبها زعماء برزوا من صفوف الشعب وهو الذي انتخبهم مثل نابليون وهتلر  
الخ . . .

من المستحيل لدى الباحث المنصف في الحقيقة الدفاع عن المزايا  
السلمية لأي نظام سياسي إذ توضح لنا التجربة أن تغير شكل الدول وبالمثل  
تغير الطبقة الحاكمة لا يؤثر في شيء على الميول الحربية عند الأمم ، ويمكن  
القول أيضاً أنه مهما يكن تنوع الحكومات سواء كانت استبدادية أو حرة ،  
ارستقراطية أو شعبية ، ملكية أو جمهورية ، فإن لديها جميعها نقطة التقاء ،  
هي أنها تتفاهم أيضاً على شن الحروب وتتلاقى في المذابح .

وسوف يلاحظ الباحث المنصف نفسه أنه قد يحدث في بلد بذاته أن  
يكون نظام متماثل تماماً ، ميالاً للحرب خلال فترات معينة وميالاً للسلم في  
فترات أخرى . فقد كان هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الخامس  
عشر ملوكاً يميلون نسبياً للسلم ، ولم يكونوا ملوكاً أقل استبداداً من لويس  
الرابع عشر الميال للحرب . وكذلك الأمر بالنسبة للجمهورية  
والجمهوريين ، ففي عهد لويس فيليب مثلاً كان الجمهوريون مثلهم مثل  
الاشتراكيين وعلى رأسهم برودون ، ميالين للحرب ، بينما كان الملك  
والملكيون ميالين للسلم .

ومن ناحية أخرى لم يكن التماثل في المعتقدات الدينية أو في النظم  
السياسية ليهيء الأمم بالضرورة إلى الاخاء ، وحتى في الصور التي سادت  
فيها العقيدة القوية فقد تقاتل المسيحيون فيما بينهم وكذلك المسلمون أكثر  
بكثير مما قاتلوا ضد الكفار ، وفي عام ١٩٤٠ أظهرت الأمم العظيمة التي  
صارت كلها جمهوريات روحاً سلمية غريزية في هذا النظام ، فقد تغيرت  
اللافتة فقط وأصبحت الحروب الملكية حروباً قومية ، وعلى القلائس حلت  
النجوم أو شعارات الشرف محل التيجان ، وبقيت البزة العسكرية على

حالتها . وعلى ذلك ينبغي البحث عن موضوع عليّة الحروب في مجال آخر .

وفي القرن التاسع عشر بدأ مبدأ القوميات الذي حل محل مبدأ الشرعية الأسرية ، أنه عامل أساسي للسلام . ألم يعلن نابليون الثالث « أن القوميات الراضية لا تلبث أن تقوي وتمني الاتحاد الأوروبي » وكان برودون هو الوحيد الذي لم يشارك في وجهة النظر هذه ، لأن القوميات ، كما قال دستوفسكي لن تكون راضية أبداً . وبينما كانت كل أوروبا تصفق استحساناً ، هاجم برودون مازيني وانتقد كوسوت (Kossouth) والديمقراطيين المتخاصمين في معاهدات ١٨١٥ ، وتنبأ بأن « الديمقراطيين الامبرياليين » سوف يبدون غير أكبر على سلطاتهم وشهوة أعظم للأجناد والفتوحات من الأسر الحاكمة القديمة ذات الشرعية . وكان برودون يدرك أن النظم الملكية باعتبارها بالضبط بقايا الشرعية الاقطاعية ، كانت على استعداد لقبول التسلسل في السيادة ، وعلى العكس كان مبدأ القوميات يمثل من أول الأمر تشدداً خاصاً ، ذلك أن هذا المبدأ بإضافته على الأمة نوعاً من سيادة نابعة من الحق الإلهي ، يقوي من تشدها ضد أي تعليل من هذه السيادة في سبيل نظام اتحادي أو نظام الدولة الأعلى .

ومن المعروف أن برودون أقر قيام اتحادات واسعة لا تكون وحداتها من الأمم الكبرى ولكن من وحدات اقتصادية أقل منها كثيراً ، وكان يعارض مركزية الدول الموحدة ، سواء أكانت ذات نظام ملكي أو ديمقراطي ، وقد تحققت نبؤاته في هذه النقطة ، ذلك أن مبدأ القوميات لم يكن له حتى الوقت الحاضر من نتيجة سوى أنه عمم على المستوى الشعبي ، أطماع أشد الفاتحين جنوناً بالعظمة . وقد رأينا الفكرة النابليونية عن منحدرات الحماية تنتشر في كل مكان ، والتي يفضلها تحترم قومية الجار نظرياً ، ولكن يقطع منه مع ذلك جزءاً من ترابه لتأكيد أمنه ، ومع ازدياد مدى الأسلحة وسرعة وسائل النقل ينبغي لهذه المنحدرات لكي تكون ذات فعالية أن تمتد أكثر فأكثر ، ومن منحدر إلى منحدر ينبغي أن مبدأ القوميات الذي كان يجب أن يسير

بالإنسانية إلى عهد مثالي من السلم والمحبة ، فقد ظهر في استخدامه على الأقل حتى العصر الحالي ، مليء بالخلافات الدامية تماماً مثل مبدأ حكم الأسر . وأخيراً فإن نوايانا تبدو ضعيفة جداً لدرجة أن معظم الحكومات مهما يكن نظامها ومع خير قصد تنتهي دائماً بأن تجد نفسها وقد انساقت إلى شن الحرب لأجل الحفاظ على السلام .

### مشروعات السلام القائمة على القانون

منذ أوائل العصر الوسيط حاول بعض المشرعين إقامة مشروع لتنظيم دولي يتيح ، مثلما كانت قديماً المجالس الاتحادية<sup>(١)</sup> للمدن اليونانية ، العمل على تغليب السلام بين الأمم ويمكن أن نذكر من أهم هذه المشروعات مشروع بيير ديوبورا P. Dubois الذي اقترح إنشاء اتحاد للدول المسيحية ، يكون معه تجمع عبارة عن جهازه المركزي ، ثم امريك كريسي E. Crucé ( ١٥٩٠ - ١٦٤٨ ) الذي اقترح بسط هذا المشروع على دول الأرض كافة ، وسولي (Sully) الذي تخيل تقسيم أوروبا إلى خمس عشرة دولة ذات قوة متعادلة وثرورة متساوية .

ومع ذلك فقد كان علينا أن ننتظر ظهور الحركة الانسانية الكبرى في القرن الثامن عشر لنرى ولادة مشروعات إذ لم تكن واقعية فقد كانت على الأقل من الدقة في تفاصيلها ما جعلها موضع الاعتبار من رجال السياسة .

### الأب دي سان بيير : L'abbé de Saint Pierre

في عام ١٧١٣ في مؤتمر أوترخت بدأ الأب دي سان بيير بطرح « مشروعه لاعادة السلام الدائم إلى أوروبا » وعندما أتمه في أعام ١٧١٨ كان

---

(١) هذه المجالس الاتحادية التي أطلق عليها (Amphictionies) وكانت ذات صبغة دينية وسياسية وتضم مندوبين عن المدن اليونانية يتشاورون في الصالح المشترك ويحكمون في الخلافات التي تقوم فيما بينهم .

لهذا المشروع شرف التداول بالبحث من جانب رجال الموسوعة (الانسكلوبيديونا) .

إن أول شرط للسلام هو تكوين ما أطلق عليه الأب دي سان بيير « المجتمع الدائم » الذي يضم أربع وعشرين دولة التي توقع على معاهدة تتخذ أساساً « الحالة القائمة Statu quo » التي تم إقرارها أخيراً في أوترخت وفي راستات والتي تنص على أنه « سوف يكون لكل الدول دائماً ذات التخوم التي لها في الوقت الحاضر ، وكل تراب وطني لا يمكن أن يقطع من قبل أي دولة ، ولا يمكن ضم أي تراب آخر بالوراثة أو بميثاق بين أسر مختلفة أو عن طريق الانتخاب أو الهبة أو التخل أو البيع أو الغزو أو بصك بالخضوع الارادي من الرعايا أو خلاف ذلك » .

وتقضي المادة الثانية بمشاركة كل دولة بصورة تتناسب مع إيراداتها وأعبائها ومصاريفها العامة ، وتدخل في التفاصيل توقعات دقيقة لميزانية تبلغ خمسة وعشرون مليوناً يذهب القسم الهام منها إلى المساعدات الخ . . . وفي المادة الثالثة يطالب بأن « يمتنع المتحالفون الكبار ، لأجل إنهاء الخلافات الراهنة أو المستقبلية فيما بينهم والتي لا بد ، عن اللجوء إلى السلاح ، ويتفقون على أن يتخذوا دائماً ومن الآن فصاعداً طريق التوفيق بوساطة بقية الحلفاء الكبار في مقر الجمعية العامة » .

ولكنه يقضي مع ذلك بالتحكيم والعقوبات فيقول : « إن الحلف الكبير سوف يتسلح ويبعد من يشن حرباً ظالمة » ويلزم إذن وجود جيش دولي يقدم سان بيير وصفاً دقيقاً لهذا الجيش ، ولكن يبدو توزيعه مفعم بالخطر بالنسبة للأعضاء الموقعين . وينتهي إلى أن يسمح للأتراك والروس والتتار الخ . . . بالدخول في حلفه . ولكن ليس لهم مكان في مجلسه . ثم يتوسع الأب سان بيير بدقة كبيرة في تكوين هذا المجلس وفي سير أعماله ويطلق عليه « مجلس الشيوخ للسلام Sénat de la paix » ويتكون من أربع



وعشرين شيخاً من أربع وعشرين أمة ، ويحدد أعمارهم ومرتباتهم ومدة عضويتهم وعدد معاونيهم الخ ...

جيرمي بنتام : **Jeremie Bentham**

لم يتيسر معرفة كتاب عالم الاقتصاد والمشرع الانجليزي بنتام الذي ألفه عام ١٧٨٩ ، معرفة حقه إلا بعد حوالي نصف قرن ، ويقدم لنا « مشروعه للسلام العالمي الدائم » التنافس التجاري أساساً بقيام الحروب ، ومن ثم كان استنكاره للنظام الاستعماري ، ويرحب بنتام بالاعلان الشهير لروبسبير القائل : « أن تدمر المستعمرات أفضل من أن يخرب مبدأ » وقد وجه إلى المؤتمر مذكرة بقصد حثه على ترك المستعمرات ( وكان لا بد لهذه الآراء أن تذهب في الهواء في العهد ذاته حيث أنه في الثاني والعشرين من مايو ١٧٩٠ اتخذت الجمعية التأسيسية قراراً بأن تمتنع فرنسا عن القيام بأية حرب للفتح وألا تستخدم قواتها أبداً ضد حرية أي شعب ... والبقية معروفة).

يطالب مشروع السلام الدائم لبنتام في وضوح بتحديد التسليح ، وقد أراد أن يقنع فرنسا وانجلترا بما في الغزو من مصاعب فيقول موجهاً حديثه لانجلترا : « إنكم أنتم المجرمون الكبار ، ولكنكم أنتم أيضاً الأمة الأقوى ، إنكم لا تخشون العدالة ، ولكن لديكم القوة ، وأن قوتكم كانت السبب الرئيسي لما تقتربون من جور وظلم » .

ويضع بنتام على رأس مجلسه الأممي محكمة ومؤتمر للسلام فإن قيام محكمة يحتمل إليها مع إلغاء أسباب الحروب أيضاً ، سوف تكون فرصة لمخدرات هائلة وسوف تحمل الثقة محل سوء الظن والحسد ، وعلاوة على ذلك فإن مؤتمر السلام هذا ، باستخدامه الصحافة وكل الوسائل التي نطلق عليها اسم الدعاية ، سوف يروض النفوس لكي تتوقف أسباب الغضب الممكن ، وعلى هذا الوجه نتفادى عن طريق قناعة عامة ، استخدام القوة . وأخيراً يلح بنتام على إلغاء السرية في الأعمال الدبلوماسية فيقول : « إن السرية لا فائدة

منها وهي أيضاً ضد صالح الحرية وصالح السلام»<sup>(١)</sup>.

إن لهذين المشروعين ، مشروع سان بيير ومشروع بنتام ، أهمية خاصة لأنها يتضمنان كل الأنظمة التي بذلت الجهود لتحقيقها من قبل ، فإن المشروعات الحالية للعدالة والأمن الدولي أو التحكيم ترجع في تفاصيلها إلى هذين المشروعين .

### نتائج حديثة : Aboutissements modernes

محكمة لهاي ومواثيق التحكيم ، في الثامن من شهر مايو من عام ١٨٩٨ ولأول مرة اجتمعت ست وعشرون دولة ، بمثابة مندوب رسمي في مدينة لهاي للبحث عن وسيلة للمحافظة على السلام في العالم ، وفي هذا الاجتماع اشتركت كل الأمم الأوروبية علاوة على الصين واليابان وبلاد فارس والولايات المتحدة الأمريكية . وقد جاءت المبادرة الأولى من الكونت مورافيف وزير خارجية نيقولا الثاني وفي مذكرة إلى الدول العظمى ، وضح أن سباق التسلح يستنفد مدخرات الدول ويستنزف قواها واقترح أن يدرس لا الحد من التسلح فحسب بل الوساطة والتحكيم أيضاً .

وقد كان الفشل مصير ذلك المؤتمر الأول ، ويرجع هذا الفشل في معظمه إلى مقاومة ألمانيا ، وبعد ذلك بقليل انفجرت حرب البوير ثم الحرب الروسية اليابانية وذلك كرد على ذلك الاجتماع الأول .

وانعقد مؤتمر ثان في لهاي عام ١٩٠٧ بناء على طلب الرئيس تيودور روزفلت . وقد قام هذا المؤتمر بتقنين قواعد القانون الدولي في زمن السلم وفي زمن الحرب ، وحقوق وواجبات الدول والأفراد المحايدين - ولكن اصطدمت المسائل الأساسية بمعارضات عديدة فقد كانت ألمانيا ترفض دائماً

---

(١) واليوز : تجربة استمرت ثلاثين عاماً من الدبلوماسية العلنية ، تمتدح من جديد المفاوضات السرية لأنها لا تثير الرأي العام ( المؤلف ) .

وكما فعلت عام ١٨٩٩ تحديد التسليح والخضوع التام للتحكيم ، ومع ذلك فقد انشئت محكمة للتحكيم وكانت أحكامها مسموعة أحياناً عندما تتصل بمسائل ذات أهمية ثانوية .

وبعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ تولدت آمال جديدة في تنظيم تشريعي للسلام وتشكل ذلك في ميثاق جمعية الأمم الذي يتضمن مبادئ أساسيين عالمية الجمعية وأمانة عامة دائمة . وكان على أعضائها أن يجتمعوا دورياً في مؤتمر دولة وتقوم الأمانة العامة بالأعمال خلال فترات ما بين المؤتمرات .

ولكن فيما بعد سمح لكل عضو أن ينسحب من الجمعية بعد إخطار مسبق ومن ثم لم يعد هناك لا التزام ولا عقوبة وصار التحالف الدولي نوعاً من التجمع الحر لا يمتد سلطانه إلا على أعضائه الذين يستطيعون أن يتخلصوا ، إذا ما شاؤوا ، من الارتباطات المستقبلية .

وبعد ذلك جاء ميثاق كيلوج (Pacte Kellogg) في عام ١٩٢٨ الذي وقع في باريس يوم ٢٧ أغسطس ١٩٢٨ من وزراء خارجية جميع الدول بما فيهم وزير خارجية الرايخ ، وقد تعهدت جميع الدول بالامتناع عن الحرب كأداة للسياسة الوطنية ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك . . .

### ميثاق الأطلنطي : La Charte de l'Atlantique

في ١٤ من أغسطس ١٩٤٤ وضع ميثاق الأطلنطي بدوره الأسس لسلام المستقبل . وفي مؤتمر دمبرتون أوكس وعلى الخصوص في الاجتماع المتكامل في سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ واشتركت فيه سبع وأربعون أمة ، وكان الهدف هو بذاته أي حفظ السلام والأمن الدوليين ، وكما حدث في قيام جمعية الأمم وكما في ميثاق بريان - كيلوج تعتبر الحرب مرفوضة ومستنكرة رسمياً وأعلنت المساواة بين جميع الأمم المتحدة . ولكن يبدو أن الشرق التي

سارت عليها جميعة الأمم قد أغفلت جزئياً لأن : أولاً - يمكن أن تؤخذ القرارات بالأغلبية ( وليس بالاجماع ) .

ثانياً - أن مجلس الأمن المكون من أحد عشر عضواً منهم الخمسة الكبار أعضاء دائمون ( الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين )<sup>(١)</sup> هذا المجلس يتولى في الواقع مسئولية صيانة السلام وله اليد العليا في القرارات وتتخذ القرارات بتصويت إيجابي من سبعة أعضاء من ضمنهم أصوات الأعضاء الدائمين الذين لهم حق الفيتو ، وبشرط أن تكون هذه الأصوات بالاجماع .

ويقرر ميثاق سان فرانسيسكو الذي يتباعد عن روح ولسون ، عقوبات غير العقوبات الأدبية منها :

١ - قطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية ووسائل المواصلات .

٢ - عند الاقتضاء يمكن للمجلس أن يعمل على تدخل القوات الجوية والبحرية والبرية اللازمة للحفاظ على الأمن الدولي . ولأول مرة بدت سيادة الدول موضع نظر .

ويقرر ميثاق الأمم المتحدة أيضاً تعاوناً دولياً في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والطبية والتربوية ، وكذلك قرر نظاماً دولياً للرعاية على البلاد التي كانت خاضعة لدول الأعداء السابقين .

وعلى هذا الوجه يكون ميثاق الأمم المتحدة المحاولة العالمية الأخيرة للمحافظة على السلام . وليس في هذا العمل الذي يعبر عن نية طيبة إلا عيباً واحداً يتلخص في أنه افترض أن المشكلة قد سويت ، إذ أن كل هذه الطرق تدعي إلغاء الحرب دون معرفة تطبيقها الصحيحة وأسبابها الحقيقية وسننها

---

(١) وقد حدث تعديل في عدد أعضاء مجلس الأمن وزيد الأعضاء إلى ١٥ عضو مع بقاء الخمسة الكبار .

الأكيدة ، وعلى الرغم من التطلعات العالمية فقد فشلت جهود ممثلي الشعوب لأنهم يطبقون منهج المشرعين الذي يتلخص في أنهم لا ينظرون إلى الحرب إلا أنها نزاع مماثل للنزاعات التي تنشأ بين الأفراد . مع أن النزاعات الفردية لا تمثل اطراداً ولا ضرورة<sup>(١)</sup> . أما الحرب فهي ظاهرة عامة إطلاقاً نجدها في كل الحضارات البشرية من أشدها إيغالاً في القدم إلى أحدثها .

يمكن أن نلاحظ أن هناك أيضاً نقطة أخرى وهي أن الخطط التشريعية تفترض مقدماً أن المشكلة قد حلت ، وتتلخص مسلمتها في أن الحرب هي الوسيلة التي تلجأ إليها الدول للتوصل إلى فرض إرادتها ، وتبدو لها هذه الوسيلة على شيء من الشراسة ومن ثم تريد إعلان مخالفتها للقانون أو تقييدها تقييداً شديداً ، ولكن الحقيقة تبدو شيئاً مختلفاً تماماً ، إذ ليست الحرب هي أدواتنا بل أننا نحن أدوات الحرب ، وهي بكونها حدثاً لا يمكن دفعه من حلقة ( تكون عناصر بنائها وكذلك ارتباطها مع التركيبات الاجتماعية وأنماط ملاساتها بعيدة عن تناول معرفتنا ) فهي تمسك بأعناقنا وتحث عبر وجداننا ، إنها كالوباء النفسي أو الجنون الجمعي .

فالحرب ليست وسيلة بل إنها غاية في ذاتها أو بالأصح إنها غاية تتخفى في صورة وسيلة ، وإذا ما حللنا معظم الحروب فإنها تبدو مخالفة تمام المخالفة للعقل والصواب ، وبعيدة عن أن تكون إرادية تماماً مثل الوباء أو الهذيان ، وأن الرغبة في تنظيمها أو منعها بإجراءات قانونية لتبدو عبثاً مثلما نعاقب بالقانون واقعة نقل عدوى الطاعون أو حمى التيفوئيد . ويمكن أن يوصف ميثاق كيلوج مثلاً بأنه « ميثاق امتناع عن المرض » وعلى هذا يجب أن يكون الدور العملي الأساسي لعلم الاجتماع أن يتيح للإنسان السيطرة على النزاعات الاجتماعية وأن يحول ويوجه مسار القوى العمياء للقدر ، ولكن

---

(١) ومع ذلك توضح الإحصائيات أيضاً أن العدد السنوي للجرائم والجنح في كل مجتمع تمثل اطراداً معيناً .

ينبغي أيضاً التعرف على هذه القوى أولاً<sup>(١)</sup> .

## ٧ - المشاريع السيكولوجية والترفيهية :

تفترض هذه المشاريع بصفة عامة أن الحرب هي نوع من عادة متوارثة عن الأجداد أو هي نوع من انحراف بعض نزعاتنا ، وينبغي إذن إخراجها من تفكير الناس عن طريق التربية .

إن كل الأديان التي تفرد مكاناً متسعاً كثيراً أو قليلاً لروح الانسانية ، تمارس هذا التعليم فالصلوات اليومية والطقوس الكنسية والحفلات تطلب كلها إلى الله أن يمنحها السلام : « اللهم امنحنا السلام » (Dona nobis pacem) .

وقد بذلت منظمات دولية مختلفة جهداً كبيراً أيضاً لمحو الروح الحربية من الكتب المدرسية ، ولكن الدعوة للسلام وكذلك مشاريع السلام لم تنجح بوجه عام سوى أنها أسقطت فقط دوافع الحرب التي أضحت بالية ولكن لم يعد لها أي اعتبار .

وقد لاحظ البعض أن الروح الحربية كانت تنمو في حضاراتنا كلما كان يتضاءل مغزى العيد الاجتماعي مثلما كانت الأعياد الدينية القديمة وأعياد آلهة الخمر والمهرجانات والألعاب الأولمبية والحج الكبير الخ . . . ويقترح هؤلاء إجراءات مختلفة تحل محل تلك الأعياد وعلى مستوى ترفيهي : تنظيمات للعطلات والسياحة والحلات والاحتفالات والمؤتمرات والتظاهرات الثقافية والرياضية وكذلك تيسيرات سلوكية موجهة هي أيضاً للترفيه وعلى الخصوص « لامتناس سخط » الأفراد ويمكن ربط وجهة النظر الأخيرة هذه باتجاه قديم جداً يتلخص في أن نجد للحروب ولنزعات العنف عند الناس بدائل ترفيهية

---

(١) علينا أن نضيف أن كل هذه المشاريع القانونية تتخطى إذ أنها لم تستطع أبداً تعريف شرعية السيادة ولا حق الاكتساب بمرور الزمن أو وضع اليد في القانون الدولي .

وأشهر منظمة من هذه المنظمات هي تلك التي وجدت لدى الحضارة الاغريقية وهي في أوجها . وبعد ذلك كلما كان السلام الروماني يمد بساطه على مدن الامبراطورية ، كان نظام الخبز وألعاب السرك *Système du panamet circenoès* يدخل إلى المدن النائية لاطعام السكان وتسليتهم واستمالتهم .

ولكن الموقف يتعقد في الحضارات الحديثة إذ الواقع أن نسبة ضخمة من السكان تستخلص وسائل معيشتها من الاعداد للحرب ثم يضع النظام الألي والوظيفي في خدمة الحرب عدداً متزايداً من الأفراد الذين لا يحتاج لهم الانتاج ، ومن ثم ينبغي أن يحدث انقلاب في تنظيمنا للعمل وفي أخلاقيتنا بأن نخلق ، كما كان فورييه (Fourier)<sup>(١)</sup> ، حضارة أوقات الفراغ والعمل الجذاب الذي ربما نعاف تصوره بصفة عامة نتيجة لرؤاسب قديمة إذ لا يزال يشوب تصورنا للعمل ذكريات الرق والعبودية والعمل الاجباري .

#### المشروعات الديمغرافية :

يمكن تلخيص المشروعات الديمغرافية في أنها تعمل على تقييد الاخصاب الطبيعي ، وأنا لنجد هذه المشاريع في صور شتى عبر التاريخ ، وتتضح إحدى هذه الصور الأكثر تميزاً في عقلية المسيحيين الأوائل الذين كانوا يرفضون الخدمة العسكرية ويؤيدون عدم إخصاب قسم من السكان عن طريق العفة وينبغي ألا ننسى الصوامع والبيع والأديرة التي كانت تملأ أوروبا بمبانيها الضخمة ، وهي من وجهة نظر السلوك الموضوعي عبارة عن معالم مقامة لوقف الانجاب ، ومهما يكن التفسير الذي يقوم عنها ، تبقى الحقيقة الواقعة ، ويجب أن يدعونا استمرار هذه المنشآت وعموميتها إلى التأمل .

ولنذكر هنا أيضاً بعض حضارات سكان الجزر وعلى وجه خاص

---

(١) فورييه (Ch. Fourier) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٣٧) وكان يرى أن يتجمع الأفراد في جماعات بشرية .

الحضارات البوليزية التي كانت تمارس تحديد المواليد ، وفي اليابان كانت هناك سياسة قاسية لثبيت السكان في عدد محدد ، حوالي خمسة وعشرون مليوناً في كل الامبراطورية والذي احتفظ به عن طريق استخدام كافة الوسائل .

وقد قامت نظرية مالتوس بصفة خاصة على الاتجاه إلى عدم كفاية المواد الغذائية ، وفي رأيه أن الحرب ، مثل المجاعات والأوبئة ، هي الطريقة لاعادة التوازن بين عدد السكان والأقوات . وقد كتب مالتوس نظريته في نهاية القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك الحين كان لاستغلال أمريكا وبعض الأصقاع الغنية والتي كانت حينذاك خالية من السكان أن ساد أوروبا رخاء عظيم ، الأمر الذي يناقض النظرية المالتسية ، ولكن هذه النظرية تظهر من جديد كلما هددت الزيادة في السكان بتجاوز الزيادة في الأقوات ، ويبدو أن الارتفاع العام والمستمر في أثمان المواد الغذائية يثبت ذلك .

ولكن هذه النظرية لا تفسر إلا جانباً من الظاهرة لأن الحرب في صورتها الحضارية ، هي بالأحرى ظاهرة رخاء موجه توجيهاً سيئاً ، ومع ذلك فإن العامل الديمغرافي يلعب فيه دوراً عظيماً لأن الوفرة الزائدة التي تسبق الحرب يجب أن تتضمن في آن واحد زيادة في المنتجات وزيادة في الرجال .

وينبغي ملاحظة أن المشاريع الديمغرافية للسلام هي الوحيدة بين كل المشاريع التي ذكرناها ، التي لم يبدأ تطبيقها في أي مكان إلا في الحضارات البدائية أو البائدة والتي كانت ظروفها مختلفة كل الاختلاف عن ظروفنا ، حتى يمكن أن يستخلص منها درس ما ، ومن المدهش أن نقرر أنه في الوقت الذي يحقق فيه الطب والصحة العامة تقدماً هائلاً ، تبقى العقلية والقوانين المتعلقة بالسكان هي بذاتها في معظم البلاد كما كانت في العصر الذي كان ينبغي إنجاب عشرة أطفال ليعيش واحد منهم ، لأن فكرة التوجيه وحدها التي تطبق في موضوع السكان حتى في البلاد ذات الكثافة السكانية ، تكمن



في أنها تؤدي بدون تمييز إلى زيادة غير منظمة .

واليوم يبدو أن البلدين المؤهلين أعظم تأهيل لجر العالم إلى كارثة حربية هما على وجه الدقة اللذان يمتلكان أكثر الموارد الطبيعية وفي الوقت نفسه أعظم فائض حقيقي من الرجال في سن الشباب ، وهكذا تستطيع روسيا والولايات المتحدة نتيجة لأعظم نظام صناعي وتقني قائم على العقل ، أن تضع في خدمة الحرب نسبة ضخمة من شباب الرجال دون أن ينجم عن ذلك عائق كبير يؤثر على الانتاج عندهما إن هذا يمثل تركباً متعجراً مليء بالتهديدات .

وسوف تواجهنا ، إن آجلاً أو عاجلاً ، في حضاراتنا المشبعة بالرجال مسألة نزع السلاح الديمغرافي ولا أعني التنظيم العددي فحسب بل أيضاً إيجاد تناسب في الجماعات والأعمار والنوع من ذكر وأنثى وذلك بفضل التقدم في البيولوجيا وعلم التوليد .

وقد فات إعلان حقوق الانسان الذي ناقشته منظمة اليونسكو مناقشة رائعة ، مع ذلك نقطة أساسية إذ في حضارة منظمة تنظيمياً عالمياً ، سواء كانت اشتراكية أو ليبرالية ، يمكن أن يمنح الانسان كل الحقوق التي يريد لها عدا حق الانجاب دون أي اعتبار لأنه حيثئذ يسيء إلى التوازن الاقتصادي وأمن الجماعة .

## ٨ - مشروعات نزع السلاح :

إن التعليل العقلي الذي تركز عليه هذه المشروعات هو في أشدها بساطة : حيث أن الناس يتحاربون باستخدام الأسلحة ، فيكفي إلغاؤها لتقضي بضربة واحدة على الحرب .

بدعي البعض تحريم جميع الأسلحة ، ولكن هؤلاء قليلون لأن كل شيء يمكن أن يتحول إلى سلاح من العصا القصيرة إلى الحجارة سواء كانت مشدبة أو غير مشدبة .

وهناك برنامج ثان يتلخص في تحريم أسلحة معينة بسبب خاصية خبيثة لها .  
وعلى هذا الوجه حاول أحد البابوات في القرن الثاني عشر تحريم استخدام  
الاقواس والسهم ، وفيما بعد حرم مجمع لتران (Concile de Latran)  
استخدام السهم ذي اللولب ولكن لا يلبث التعود أن يحدث وفي سرعة ،  
فإن كل سلاح جديد يقابل ظهوره باستنكار ثم يدخل هذا السلاح ، إذا  
امكن القول ، في العادات المألوفة .

وقد خضعت الغارات الجوية وكذلك حرب الغواصات لمبدأ التحريم ،  
لأن استخدامها كان لا بد أن يمتد حتماً إلى هلاك غير المحاربين وممتلكاتهم ،  
ونحن نعرف ماذا جرى في شأن هذه الأسلحة .

وإزاء هذا الاخفاق المتكرر تبني بعض المفكرين وجهة نظر مغايرة تماماً  
والتي تلخص في أنهم يتمنون أن تصبح الأسلحة فتاة أكثر فأكثر ، ويرون  
أنه على هذا الوجه لن يجزئ الناس بعد على شن الحرب وأن هذه الحروب  
سوف تنتهي بسبب الرعب ذاته الذي تثيره في نفوسهم الأسلحة التي تحت  
أيديهم . وهنا أيضاً قد كذبت التجربة دائماً تلك التنبؤات على الأقل حتى  
وقتنا الحاضر .

ما هو بالضبط تأثير السلاح ؟ - ينبغي أن نفرق بين نتائجه المدمرة  
وتأثيره على التاريخ<sup>(١)</sup> ، من ناحية التدمير يبدو أن ليس هناك علاقة مباشرة  
وأكيدة بين اتقان الأسلحة والخسائر التي تسببها الحروب المتوالية ، فإن أعظم  
المذابح في التاريخ ، وهي مذابح الحروب البونية أو حروب جنكيزخان  
وتيمورلنك مثلاً قد نفذت بواسطة الاقواس والسهم والحراب وأسياف صغيرة  
تثير السخرية ، وعلى العكس يمكن أن يحقق التقدم في التسليح تفوقاً سياسياً  
أو على الأقل حماية فعالة لأولئك الذين يحوزونها ، وربما يرجع الفضل إلى

---

(١) انظر فولر (Fuller) : « تأثير السلاح على التاريخ » .

النار المنطلقة فوق الماء ، أن عاشت بيزنطة ثمانية قرون بعد زوال الامبراطورية الرومانية . وأن المدفع وبوجه عام تقدم الأسلحة النارية هو الذي وضع النهاية لغزوات المنول والتتار . ويمكن القول أن التاريخ العسكري هو عبارة عن الجهد الدائم للملائمة بين الأسلحة والدروع ، ومن ناحية أخرى بين التقنية والعدد .

وإلى جانب مشاريع تحديد الأسلحة هناك مشروعات لتحديد اعداد الجيوش أو إلغائها ، وهي مشروعات متأثرة قبل كل شيء بفكرة أن الجيوش الدائمة أو على الأصح قواد هذه الجيوش تسيطر عليهم روح حربية لا يمكن قمعها . وكان بريغو بارادول يقول : « إن الجيش في حاجة إلى القتال مثل القاطرة التي هي في حاجة إلى السير خشية أن تصير قطعة من الحديد الصدىء ، فالجيش يستفيد من الصراع أمجاداً وامتيازات ومكافآت وترقيات ومكاسب شتى » . هذه العبارة تلخص النظريات المعارضة للعسكرية التي نراها تعود للظهور بصورة دورية ، وهي لا تؤدي إلى أية حلول لأن في كل رجل جندي كامنة ، وإذا كان قادة الجيوش هم ، مثل الأطباء الجراحين للشعوب فلإلى من يجب أن يوجه الهجوم ، إلى الجراح أم إلى المرضى ؟ .

وأخيراً يمكن أن نقرب من مشاريع أبطال الجيوش تلك التي تريد إلغاء الجيوش الوطنية واحلال جيش دولي وحيد محلها يوضع في خدمة جمعية الأمم . ولا يخلو هذا المشروع من حجج جذابة ، ومع ذلك يمكن أن توجه إليه الانتقادات نفسها التي وجهت إلى مشروعات الدولة الوحيدة ، إذ يمكن أن تخشى من أن جيشاً من هذا النوع وقد صار الوحيد في العالم ، ولم يعد يخاف من المنافسات الأجنبية أن ينساق بشكل قاطع إلى الاستيلاء على السلطة أو إلى التدخل في الصراعات السياسية أو الأيديولوجية الداخلية ، وسوف تكون العناصر التي يتركب منها موضع إغراء بطرق شتى لأن يشارك في تلك الأنواع من الصراعات تبعاً لعلاقاتها أو لأرائها . ويمكن أن يكون مصدر

النزاعات في الأطماع الشخصية للقادة أو في روح التجمع لدى الوحدات التي سوف تشكل ذلك الجيش . وحيث أننا رأينا آلاف الأمثلة على ذلك في تاريخ الجيوش فإن المنافسات الفردية ، بل مجرد شجار أحياناً ، يمكن أن ينقلب إلى حروب داخلية حقيقية .





إن الحرب ظاهرة قد تكرر حدوثها آلاف المرات ، فإذا تقرر مبدئياً أنها ظاهرة لا تسير على أي نظام متجردة عن كل عليّة موجهة وأنها لا تخضع لأي شرط ولا أي احتمال ، وأنها لا تعدو أن تكون الهوى أو الخبث الرخيص من جانب الأمم أو حكامها ، فينبغي أن ندع أمرها للأداب وتنصرف عن دراستها .

يعتقد البعض أن الحرب هي مسألة ظروف تاريخية ولكن ويا للأسف مهما يكن الظرف التاريخي ، فإن من الممكن أن نجد فيه أسباباً وجيهة لأن يتقابل الناس فيما بينهم ، وأن الحجج التي تقدم لتبرير الحرب لها نهج يسير عليه كما هو الحال في كل الظواهر الاجتماعية الأخرى ، وأن ذلك الذي يتسم رثاء لذكرى أولئك الذين كانوا يتقاتلون لأجل عبارة صدرت عن القديس أوجستين ، نراه مستعداً لأن يذل حياته في سبيل نظرية سياسية تملك قلبه ، إن المنافسات بين الشعوب المتجاورة هي في الغالب أقدار جغرافية ، وتستمر موضوعات شجارهم هي بذاتها خلال قرون ، زمع ذلك فقد كانت محتلة تارة وغير محتلة تارة أخرى ، وهي تهدأ حيناً ثم لا تلبث أن تشتعل .. لماذا ؟ .

لقد أثبتنا بأنفسنا أن مشروع دراسة الحرب دراسة علمية قبل الحكم عليها بغير مقاومة عنيفة وليس هناك داعٍ للدهشة : أليست الحرب هي المجال لأنواع الفزع المقدس كما كانت من قبل الصواعق والرعود التي حرمت دراستها على علماء الطبيعة المدينين للمقدسات؟ وينبغي ألا ننسى هنا أنه في الماضي كان يسمح بالتعذيب ولم يكن يسمح بالتشريح .

وإذا ما أبدى الناس والأمم والدول تحفظاً شديداً فيما يتعلق بتشجيع الدراسة العلمية للحروب ( إذ لا يوجد في أي بلد معهد للحروب لا يكلف مع ذلك ثمن دبابة متوسطة أو ثمن زوج من طائرات المطاردة ) هل يكون ذلك لأنهم يخشون بغموض أن يروا أعظم أعبادهم نشوةً يخفتي وحيلتهم الأخيرة تنتهي ؟ .

إن الميل الطبيعي للنفس البشرية يبدو أنها تؤمن قبل أن تعرف وفي موضوع الحرب تسيطر على تفكير ما صيغ مثل ( ليس هناك سوى ... ) أو « يكفي أن ... » ونكون ضحايا للوضوح الكاذب للحرب وبالأخص لبواعثها التي تختلط في أغلب الأحيان مع أسبابها ، وفي أيامنا نجد العقلية المؤمنة بالسحر التي أبعدت أخيراً من العلوم الطبيعية تلجأ إلى المسائل الاجتماعية .

كان الطب التجريبي في الماضي يدعي إيجاد الدواء بدون دراسة للأمراض ، ولكن لم يكن للطب أن يحقق أبداً أي تقدم إذا لم يكن قد اعتمد إلا على الأطباء دون البيولوجيين إذ أن المختبر يبدو أكبر أهمية من المستشفى لكي نصل إلى تقدم حقيقي وكذلك لن يكون لدينا سوى مسكنات في مسألة الحرب إذا لم نؤسس بطريقة منهجية علم حقيقي للحرب غير مشوب بفكرة التجسيد Anthropomorphisme .

إن ذلك هو النتيجة الوحيدة الموضوعية الخالية من فكرة الوهمية التي تبدو لنا إمكانية استخلاصها من دراسة الحروب في ضوء الحالة الراهنة لمعارفنا .

## حرب أو علم الحرب

يعيش عصرنا مأساة حقيقية أصبح الجميع يحس بها أكثر فأكثر ،  
فالحرب اليوم كما كان الأمر في العصور القديمة أو في العصر الوسيط أمر مقدر  
في العلاقات بين الأمم ولا زالت هي أساس القانون الدولي وفي الوقت نفسه  
لا زالت هي الضابط والتبرير لاستقلال الأمم .  
وإلى هنا لم تستطع مشكلة الحرب أن تخرج عن مسارها منذ آلاف  
السنين فهي تتذبذب بين الوممية الشرعية والسلمية الخطابية لكي تنتهي أخيراً  
وبصورة قياسية إلى الخاتمة التي يلخصها المثل السائر الروماني القديم : « إذا  
أردت السلام فاستعد للحرب » .

ولكن الحرب عبارة عن نوع من ولاء اجتماعي ولا مكان للتفكير  
بجدية في قيام سلمية علمية ينبغي لنا أولاً التوصل إلى معرفة موضوعية  
« لظاهرة الحرب » .

وفي انتظار ذلك نتيح لنا دراسة البلمولوجي (Polemologie) وضع  
مسائل الحرب والسلم في مجال جديد يسمح بأن نبحث صفة القداسة عن  
الحرب وتناهى بالسلم عن السياسة .

ويقول آخر يبدو أنه ليس لنا في الظرف الحاضر الخيار سوى بين  
المسلكين التاليين : إما أن نستمر في الاستعداد للحرب وأن نسلح أكثر  
فأكثر وأحسن فأحسن ، وباختصار علينا أن نتظرها أيضاً حتى تنفجر مرة  
أخرى بسبب أي واقع ، أو أن نرى فيها ظاهرة اجتماعية جديدة بأن تدرس  
من ناحية وظائفها وعناصرها التركيبية وأسبابها ، وتكون تبعاً لذلك ذات  
وظيفة وقائية .

وباختصار نحن محكوم علينا أن نتأهب للحرب أو نعمل جاهدين  
لأجل إقامة علم الحرب .

تم بحمد الله .